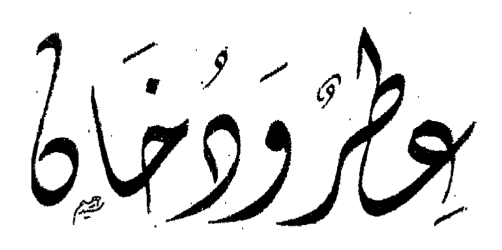

لجنة النشر للجامعيين
عطر ودخان
محمود تيمور

لجنة النشر للجامعيين



تأليف

محمود تيمور

يطلب من

مكتبة مصر ومطبعتها
٦٣ شارع الفجالة مصر

تصدير

الرجعية الجديدة

من دعائم النهضة الحديثة

لا تسنح فى خواطرنا كلمة « الرجعية » إلا تمثلنا لها على الفور ذلك المعنى البغيض : معنى الرجوع إلى الوراء ، لا المضى إلى الأمام ، معنى الجمود لا الحركة ، معنى الوقوف عند حالة معينة لا الترقى إلى أحسن حال . . .

ولذلك كان دعاة التجديد والإصلاح جديرين أن يتخذوا من كلمة « الرجعية » رمزاً يخشون منه على نهضة الأمة ، وتوثبها إلى حياة العزة والرقىّ . فلولا التطور والتجديد الذى هو طابع الحياة ، لما خرجت الإنسانية من أعماق الكهف الطامس إلى رحاب المدينة النيّرة .

وفى هذه الفترة التى شمرت فيها مصر لتخطو إلى الأمام

خطوات فسيحة ، قام المفكرون بدعوة جهيرة إلى التجديد ، وحملة عنيفة على « الرجعية » وما تنطوى عليه من أنظمة وأساليب وتقاليد ، وذلك رغبة منهم فى تنبيه الأذهان إلى ضرورة الانفصال عن الماضى الذى نجم عنه هذا التخلف فى الحضارة والتمدن ، واستئناف حياة جديدة لا تمت إلى الأمس بأية صلة ، بل تماشى الحاضر ، وتساير تطوره إلى المستقبل المنشود .

ولم تأخذ جماعة المفكرين هوادة ولا رحمة بهذه « الرجعية » فلقد تألبت عليها عناصر المثقفين فى كل ضرب من ضروب الثقافة ، وغرسوا كراهيتها فى أنفس النشء النابت ، ولم يألوا جهداً فى حمل المعاول الضخام لتحطيم فكرة « الرجعية » ، واستئصال شأفتها فى كل ناحية وكل ميدان ، كأنها عدو لدود يراد القضاء عليه ، حتى تؤمن غارته ، ويزول خطره .

وإن هذه الشدة وذلك العنف فى مناهضة « الرجعية » ومطاردة آثارها ، لما يورث الأذهان بعض الإشفاق على تلك الفريسة المسكينة التى تجمعت عليها المعاول ، وخوصرت من كل فج . ومن شأن الإشفاق أن يبعث على التفكير والبحث

فى شأنها ، وفيما حدا إلى إعلان الحرب عليها . فهل كانت « الرجعية » حقاً شراً كل الشر ؟ وهل خلت جوانبها جميعاً من عوامل الخير التى يفتقر إليها المجتمع فى تطوره ؟

ذلك ما نعالج الحديث فيه بما يتسع له المقام ، كيما نصل إلى نتيجة ربما التمسنا فيها الحقيقة الضائعة . فلقد اقترنت الدعوة إلى التجديد والإصلاح بأوائل اتصالنا بحضارة الغرب ، تلك الحضارة التى تحوى أشتاتاً من عناصر القوة والنفع للمجتمع البشرى . ولعل هذه الحضارة قد أعشت بوهج نورها وطرافة مظهرها بعض العيون المتطلعة ، فبهرها النور ، وخلبها المظهر ، وكان من أثر انبهارها أن تطرفت فى دعوتها ، وغالت فى نزعتها ، ولم يكن فى مستطاعها وقتئذ أن تنفذ إلى الحقائق على مهل ، وتمحص الأشياء على بصيرة ، فمضت تحض على التمتع بذلك النور الوهاج والمظهر الخلاب ، وتدعو غير عابئة إلى اطراح الماضى فى شتى صوره ومظاهره . فنهض لها فريق من دعاة القديم المتطرفين يستمسكون بهذا الماضى ، ويستنكرون الجديد فى كل شىء ، ويأبون على الحياة عنصر الحركة والنمو . فضاعت

الحقيقة بين هؤلاء وهؤلاء فى هذه الحقبة من الزمن ، ولبثت تنتظر من ينشدها فى الغد القريب أو البعيد .

وفى معتقدى أنه قد آن الأوان لأن نتدبر الحقيقة فى هدوء وسكينة ، ونحكم على الأشياء حكم خبرة وتجريب ، فقد بدأ المجتمع المصرى يخرج من تلك الفترة المضطربة التى افتتحنا بها نهضتنا الحديثة ، وجربنا كثيراً من مظاهر المدنية الجديدة ، وتكشف لنا ما كان مستوراً من دخائلها ، وما كان مطوياً من نتائجها ، فالآن يحق لنا أن نقف وقفة تأمل وتفكر ، نحلل فيها عناصر الماضى والحاضر ، وأسس القديم والجديد ، لننظر أيها أصلح لإعلاء صرح حياتنا المستقبلة ؟ وأيها أولى بالنبذ والاطراح خشية أن يعوق أمانينا فى العيش السعيد ؟

وأول ما يخطر بالبال فى هذه الناحية أنه ليس من المستطاع قطع الصلة بالماضى قطعاً باتاً مهما يكن من أمره ، ومهما تكن المصلحة فى هذا القطع . فما يدعو إليه غلاة المجددين من التخلص من الماضى مضاد للطبيعة القاهرة التى جعلتنا زبدة ذلك الماضى ، وخلاصة ما ذهب فى أطوائه من غرائز وظواهر ، فعامل

الوراثة مثلا يصلنا بماضينا من الفرع إلى القدم ، وهذا إلى جانب أن الدعوة إلى مقاطعة الماضى كله دعوة إلى الطفرة لا إلى التطور . والطفرة تستلزم تغيير النفوس وتبديل الطبائع ، ونفى عوامل الوراثة دفعة واحدة ، ولذلك يقال بحق : إن الطفرة محال . فالمرء ابن بيئته ، وسليل وراثته ، وتغير البيئة والوراثة تغيراً شاملا لا يتم إلا فى أطوار تمر وأحوال تتقلب . على أنه إن تم فإنما تبقى منه بعض عوامل جغرافية أو إقليمية أو اجتماعية ذات أثر كبير لا يلحقها التغيير مهما تختلف عليها الأطوار والأحوال .

وإذا كان هذا مقرراً ، فما هى العناصر التى يجب أن ننسلخ عنها وهى جزء من ماضينا وحاضرنا ؟ وما هى العناصر التى يمكن أن نتخذها وهى من الجديد المستحدث ؟

نقول على وجه الإجمال إنه يلزم ألا نبقى من قديمنا إلا ما يكوّن شخصيتنا قوية نامية ، ويصور طابعنا مشرقاً ناصعاً . وألا نأخذ من الجديد الطارىء إلا ما يساعد هذه الشخصية وذلك الطابع على الترقى والنماء والنصوع فى ميدان الحياة .

ولقد قيل : إن الشرق شرق والغرب غرب وان يلتقيا . وكثير من الحق ينطوى فى هذه الكلمة . فللشرق أن يبقى شرقاً بروحه وسيماه ، وللغرب أن يبقى غرباً بما له وما عليه . وهذا لا ينافى أن الشرق والغرب يسيران معاً جنباً إلى جنب فى موكب المدنية ، وخطاهما دائماً إلى الأمام . فأمّا أن يفقد الشرق ما له من روح وسيماء ، فليس وراء ذلك إلا أن يندمج فى الغرب ويفنى فى رحابه ، ويصبح رقعة منه يعوزها التميز والاستقلال . فالشرقيـة بمميزاتها وسماتها يجب أن تظل دائماً تحت رايتها تعلن للعالم الإنسانى وجودها وشخصيتها .

وإننا لعلى يقين أن المدنية الغربية كالسيل المنحدر ، يدفع فى طريقه طوعاً أو كرهاً كل ما يلقاه ، فليست تثبت أمامه عقبة ، وليست تجدى فى رده حيلة . ومن العبث أن ينصح لنا غلاة القديم بالوقوف فى وجه ذلك السيل ، معاندين له ، متغافلين عن سطوته : فالرأى الصائب أن نجارى سيل المدنية فى حزم ، ونطاوعه فى تبصر ، لا أن نكتف أيدينا إزاءه ، فيطوينا فى موجه المتدافع ، ولا يبقى منا على شىء تؤثره

ولن تتسنى لنا هذه المسايرة الواجبة ونحن محتفظون بكياننا غير مغمورين بلججه ، إلا إذا كانت لنا شخصية قوية تدعمها مقومات من تقاليدنا الأصلية النافعة الرشيدة . فحسن القيام على ميراثنا من هذه التقاليد هو العاصم لنا من الفناء فى تيار المدنية الجارف كل الفناء .

ولما كانت هذه المدنية تلج أبوابنا بلا استئذان ، تخلط لنا خيرها بشرها ، فإن من حق أنفسنا علينا أن نرقب ما يقدم علينا منها ، لنخفف بقدر المستطاع ما نخشاه من أثرها فى قوميتنا وشخصيتنا ، ونتلقى مستبشرين عناصرها القيمة التى تهيء لنا حياة أسمى من حياتنا وأطيب حالا .

ووسيلتنا إلى ذلك أن نقوى طبيعتنا الخاصة لنتمكن من تمثيل هذا الغذاء الجديد ، وتحويله دماً صالحاً يتدفق فى عروقنا حياة وسلامة ونماء . وهذه الطبيعة تقوى بمقوماتها وإحياء خصائصها فتستطيع أن تصوغ جديد هذه المدنية فى شكل يلائم مزاجنا وروحنا ، فنكون بذلك قد احتفظنا بغراس المدنية الحديثة وأنبتناها فى منبت شرقى له هواؤه

وماؤه ، وله أرضه وسماؤه . وغاية القول أن نعين على تأقلم الحضارة فى بيئتنا المستقلة بمميزاتها .

وإن هذا الصنيع لهو مطابق للوضع الحقيقى للطبيعة البشرية . وليس الأخذ بغيره إلا منافاة لما تقضى به سنة التطور الطبيعى . وحسبنا فى تأييد ما نقول أن نعرض ذلك المثل الواضح فى حياتنا المادية : فهذا هو القطن الذى جلبنا بذوره ، قد أنبتته أرضنا قطناً مصرياً هو ابن بيئته ، وهو متميز بخصائصه عن ضروب القطن التى تتفرع كلها من أصل واحد . وهناك أمثلة شتى فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تؤيد كلها أننا نتلقى تلك الأنظمة أجنبية محضة ، ثم لا نلبث أن نخرجها للعيان مصرية الطابع والسمات .

وإن دعمنا لطبيعتنا الذاتية بما فيها من تراث الماضى المجيد ليعين أجمل العون على أن نحيل ما يطرأ علينا من النظم والأساليب الأجنبية إلى نظم وأساليب مصرية صميمة ، فيها من روحنا ومن خصائصنا . وإذا فرطنا فى دعم تلك الطبيعة ألفينا هذه النظم والأساليب تطوينا تحت جناحها صابغة إيانا

بالصبغة الأجنبية المحضة ، فتجعل منا أشخاصاً مصنوعة كالدمى والتماثيل تصيبها الجمود والتفاهة ، لا فائدة ترجى منها ولا طائل تحتها . ومرجع ذلك إلى أن النظم والأساليب لكى تؤتى ثمارها يجب أن تسير وفق الطبيعة وطوع البيئة ؛ فما كان منها غير طبيعى ولا متأقلم فآخرته الزوال السريع .

ونجتزىء فى التمثيل لذلك بالتعليم وبالأوضاع الدستورية ؛ فإنه من المفروض علينا لمسايرة النهضة الحديثة ، ولمجاراة الرقى المدنىّ ، أن نستمد من الغرب أصول الثقافة الجديدة ، فلو أننا أدخلناها جزافاً ، وفرضناها فرضاً ، دون تمصيرها ، لغدت جامدة خامدة ، ولما تيسر لنا أن نستفيد منها ، فينتهى بها الأمر حتما إلى الموت والفناء . وكذلك الشأن فى الأوضاع الدستورية ، فلو أغفلنا نحن ملاحظة بيئتنا وقوميتنا فى التخير بين هذه الأوضاع وتمحيصها ، لوقعنا فى نظم شاذة تظل غريبة عنا ونظل غرباء عنها ، فلا تحيا بيننا ، ولا يتم بها انتفاعنا .

وإذا كنت أهتف بتراث الماضى المجيد ، وأدعو إلى الانتفاع به فى دعم طبيعتنا الذاتية ؛ فلست أعنى بهذا التراث

شتى المظاهر التافهة التى لا تعد من الجوهر واللباب . ولذلك يجب فيما يتعلق بنهضـــة المرأة ألا يعنينا عناية عظيمة أن نفرض عليها زياً ، أو ننكر عليها ملبساً ، أو نأبى عليها فى ميدان النشاط الاجتماعى مسلكا . فلنترك هذه الشئون لملابسات الحياة ، وما يقتضيه الذوق العصرى وتطور المجتمع . وإنما يجب أن نقصر عنايتنا العظمى على ضرورة احتفاظ المرأة بروحها القومى وطابعها الوطنى فى الشعور والتفكير ! فإن هذا الروح وذلك الطابع يعتبر رقيباً نفسياً يرشد إلى الطريق المستقيم الذى تلتقى فيه نزعات الطبيعة المصرية الخالصة .

والآن نجمل الحديث فى بعض العوامل التى ينبغى لنا أن نستبقيها من تراث ماضينا ، ليكون لها الأثر المنشود فى دعم شخصيتنا ، واستقلال مصريتنا ، حين نصطنع من جديد الحضارة ما يأتى به الزمن :

فليكن فى طليعة هذه العوامل : عامل القومية فى التعليم ، فاذا كان من واجبنا أن نتدارس التاريخ قديمه وحديثه ، والأدب قريبه وبعيده ، وأن نكتسب من اللغات ما يتسع

الإمكان : فلنؤثر من التاريخ أولا التاريخ المصري فرعونيه وإسلاميه ، ولنقتبس من الأدب أولا الأدب العربي غابره وحاضره ، ولنحسن من اللغات أولا اللغة العربية فهماً ودراسة . نبدأ بهذا كله ، فنلقنه لأبنائنا في معاهد التعليم على اختلاف مراحلها ، وذلك لغرس بذرة القومية في قلوب الناشئين . ورب قائل يعترض على ذلك بأن في بعض هذه الدراسات نواحي أبلاها القدم ، وأفقدها الصلة بعصرنا الراهن ، فليس في بعضها للطلاب فائدة ملموسة . وربما كان لهذا الاعتراض وجاهة في المظهر ، ولكن النظرة الثاقبة تكشف لنا أن لهذه الدراسات قيمتها في دعم الشخصية القومية ونسج الصلات الروحية بين حقائق الحاضر وذكريات الماضي .

ومن العوامل التي يجدر بنا ألا نغفل أثرها : عامل الفن ، فان الفن يجب أن يكون مترجماً عن طابعنا الذي يمثل شخصيتنا القومية . فالموسيقى والعمارة والتصوير ، وغير أولئك من الفنون يجب أن تكون كلها مرآة لنزعاتنا النفسية الصميمة . ولن تكون كذلك إلا إذا زودنا هذه الفنون الحديثة بعناصر

أصيلة من فنوننا المتوارثة ، ولنعل بعد ذلك من بنائها الجديد جهد المستطاع . فبهذا الصنيع تحيا فنوننا وقد استوحت أصولها من الماضى العريق ، وسارت على نهج عصرى وأساليب مستحدثة تكفل لها فى بيئتنا الخاصة النمو والازدهار .

كذلك لا ننسى عامل التشريع ، فان التشريعات على اختلافها لم توضع فى شتى الأمم إلا لتنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض . فأوفى تشريع بحاجاتنا ، وأكثره ملاءمة لنا . هو التشريع الذى ينبع من شئوننا الشخصية ، وبيئتنا الخاصة . فاذا أردنا أن ننتفع بما جد من تشريعات فى عالم الحضارة ، وجب ألا نتلقى هذه التشريعات كما هى فى أثوابها الغربية ، وأوضاعها التى لوحظت فيها أحوال بيئات غير بيئتنا . بل نحاول جاهدين أن نستخلص من تشريعات الحضارة ما يوافق نفسيتنا وشخصيتنا ، على أن نحوطه دائماً بسياج من تشريعاتنا السابقة التى لم تعش فى ماضينا عمرها الطويل إلا لأنها منتزعة من روحنا ، موائمة لقوميتنا . وإننا مع ذلك باعتبارنا أمة شرقية لنا فى عالم التشريع قدم سابقة ، ولنا شريعة هى

فى رأى صفوة المفكرين وأساطين العقول شريعة كل زمان ومكان . فعلينا أن نستمد من روح هذه الشريعة أصول ما نسن من قوانين ، ثم نصبها فى قوالب يقتضينا إياها تطور العصر الحديث .

وقصارى ما ندعو إليه ألا نفصم العُرا بين ماضينا وحاضرنا ، بوصفنا أمة يجب أن يكون لها طابع مستقل وسمات متميزة . فاذا استهدينا الحضارة الجديدة من أمم الغرب ، فلنحتفظ مع ذلك بدعائم الشخصية والقومية وشئون الحياة .

وإنه لحتم أن نمضى مع الزمن قدما ، نقطع شوطاً بعد شوط ، ولكن هذا لا يصرفنا فى الحين بعد الحين عن أن نلتفت إلى الوراء لفتات نستفيد منها بما تعيد إلى أذهاننا من تجارب وذكريات لها أجمل أثر فى سداد خطانا إلى الأمام . . .

ساعة لقلبك وساعة لربك

رسالة من صديق

صديقي العزيز :

جمعتني أمس على مائدة الشاي فى دارك بحفل من أعلام المحافظين ، فقضينا وقتاً فى حديث رصين ، يهيمن عليه وقار ، ويسوده التزمت والاحتشام .

فالكلمات نتبادلها فى حذر ، بعد أن نصفيها ونغربلها ، خشية الانزلاق فى مهاوى التطرف ، والخروج على الفضائل المقررة والتقاليد الموروثة . والابتسامات نتداولها مطبوعة « كالكليشيه » مصوغة فى قالب الجد والعقل والمنطق . . . حتى أنفاسنا كنا نرددها فى اتزان وروية وحزم !

على هذا الحال قضيت الوقت فى حفلك الوقور ، فلما آذنت الساعة بالانصراف وخرجت ، وجدتنى أهرع بخطاً متلاحقة إلى الطريق ، حيث الإظلام « البلاك أوت » يغرق

المدينة فى طوفانه الأسود المرهوب . ولكننى لم أفزعْ من هذه العَتَمة ، بل وجدت فيها فُسحةً لمشاعرَ مكبوتةٍ أطلقتها من عِقالها ورحت أستنشق نسيم الليل جُزافا ، أروى غلتى ، وأشبع نهمى . وقد انطلقت أفكر فيما مر فى جلستنا من ألوان الحديث « الرجعىّ » وضروب المجاملة ، وآداب السلوك فى أقسى مظاهرها .

وناجيت نفسى قائلا :

ماذا يكون من أمرنا لو فشا فى محافلنا هذا اللونُ القاتم ، وعمت تلك « الطُّهرية » مجتمعَنا العصرىَّ الذى نعيش فيه ؟

أخشى أن أصارحَك بأنى ألمح مظاهر هذا التزمت ، وبوادرَ هذه « الرجعية » فى بعض نواحٍ من مجتمعنا الراهن . . .

فالكثير من قادة الرأى فينا قد تدثروا بالعباءات الفضفاضة ، وتلفعوا بالمطارف المتهدلة ، وطفقوا يتحدثون إلينا والمسبحة بين أصابعهم ، وعُلبة السَّعوط فى متناوَلِ أيديهم . يتهادَوْن فى مشيتهم تهادىَ فلاسفة القرون الوسطى ، ونحن خلفهم نسير أفواجاً صامتين خاشعين ، كأننا نسير فى جنازة مهيبة !

لا أكذبُك القولَ أيها الصديق، إن الغلو فى الطهر نقيصة!
خذ مثلا فضيلة «العبادة» فهى فى ذاتها تربيةٌ نفسية ورياضةٌ جسدية مفيدة. أما شدة التبتل والتزهد، فهى قتل للنفس الإنسانية التى خلقها الله لتستمرئ مُتَعها البريئة فى هذه الدنيا.

كذلك أقول إن التنطع فى فهم روح الفضائل المقررة، والخضوع لها خضوعاً أعمى، ليس من الأمور الجيدة العُقبى...

لعلك تلومنى قائلا:

أثمةَ ثورةٌ على الأخلاق السامية، وخروجٌ على التقاليد الموروثة؟

كلا، فالثورة هدم كامل، أما دعوتى فعصيان جزئىّ!..
وقد تسائلنى: ولِمَ هذا العصيان؟ وهل يُرجى منه فائدة؟
فأبادر بالقول: إن سرَّ الحياة كله فى هذا العصيان الصغير.
فهو الذى يجدد نشاطنا، ويُسبغ على عالمنا الراكد المملول يقظةَ الحياة!... فكيف تستعذب الصلاحَ إذا لم تتطعّم اليسير من المعصية؟ وكيف تنعم بفضيلة الصدق إذا لم يتغشّ

لسانُك مرة بالكذب ؟ وكيف تفهم روح الإخلاص إذا جَهلتَ النَّكثَ بالعهد ؟ !

إن المعصية ، أيها الصديق ، هي كالدجاجة التي تبيض كل يوم بيضةً من ذهب : حلم متألق ، وسراب خلاب ، يلهب أشواقنا ، ويثير فينا الرغبةَ المستعرة . فإذا ذبحنا هذه الدَّجاجة لنحصلَ على الكنز الذهبي تكشفتْ لنا الحقيقة كاسفةً عاطبةً كالجوزة الزَّنخة . فلنتسمّحْ في مقاربة المعصية الخفيفة ؛ ففي ذلك قضاءٌ على هذا الخيال المعذِّب الجبار !

الطبيعة نفسُها تأبى الاستقامةَ المطلقة . وإلا فلِمَ نرى هذه الوهادَ المنخفضة تتعالى بجانبها الجبال السامقة ؟ ولِمَ نرى بقاعاً تستوى وتمتد وأخرى تلتوى وتعوجّ ؟ ولِمَ نجد نسيما يرقّ ويعتل وإعصاراً يشتد ويجْرِف ؟ . . . فكن مثلَ الطبيعة ، ولكن في غير مغالاة ولا تهوّر ، ولا تغد « حنبلياً » بحتاً تعيش في حياتك « بالسنتى والملى » . . . وتُصلت على رأسك سيفاً بتاراً يتراءى لك حدُّه المرهف في كل لفتة عين !

إذا ضُرب لك موعد فتأخر عنه قليلا ، فالتأخُّر يبعث

في المنتظر بعض الإحساسات المبهمة ، ومن ثم يصبح للموعد شأنٌ وخطر ، فلا يمر مائعاً لا يحليه العتاب اللاذع ، والجواب الفكه ، والنكتة العذبة .

ولا تنس أيضاً أن الصفاءَ الكاملَ بين المحبين مجلبة للضيق والملل ، فإذا كانت حياتك على هذا اللون « المشرق المعتم » فبربك تصيد المشكلاتِ في أتفه الأمور ، وتعمد أن تنفخ فيها : فإذا ما اضطرمتْ نارها ، فاستمتع بوهجها المتأنق ، ثم دعها تخبو رويداً ، وأقِمْ على صرحها المتداعى قُبلةَ الصلح ، فإذا هى قبلةٌ غالية لا تقدَّر بثمن !

ونصيحتى إلى من يرغب فى استكمال نصفه الآخر بزوجة صالحة ، زوجةِ العمر كما يقولون . . . أن يختارَها من بين اللواتى يتصفن بطبع يخالف طبعه بعض المخالفة . فإنى لا أكره فى الحياة الزوجية شيئاً أكثرَ من ائتلاف الطباع التام . فهو فى نظرى الهدوء الذى يسبق دائماً الزوبعةَ العاتية التى تترك كل شىء هباء .

إذا كنت يا صديقى ممن وهبهم الله نعمةَ العقل الخالص ،

فأصبحت مضرب المثل فى المعاملة الرشيدة والرأى الصائب والقول المحكم . فنصيحتى إليك أن تتغابى بين الحين والحين ، وتسمح « للغلطة المستملحة » أن تفلت من لسانك ، فتدلَّ بعملك هذا على أنك إنسان حقاً ؛ إنسان هو ابن بيئته ، لا كائن غريب هبط الدنيا من عالم الخيال . . .

وإذا كنت من عشَّاق الجمال ، ورأيت الجمال الصِّرف انسجاماً بين القسمات تاماً غير منتقص ، وتناسقاً بين الأجزاء مكتملا غير منتقص . فهل ترى هذا النوع من الجمال جمالا حقاً ؟ كلا وأيم الله . . . إن الشذوذ اليسير من ألزم قواعد الملاحة . وقديماً قال المثل العامىّ : « الحوَل نصف الجمال » !

تذكر دائماً يا صديقى أن « الشيطان » كامن فينا ، محتبس فى هيكلنا الآدمىّ . فهل من الحكمة أن نسدَّ منافذ محبسه ، ونحكم السياج بينه وبين العالم الذى نعيش فيه ، فندفعه إلى الثورة والتخريب . . . أليس من الحصافة أن ندع هذا المارد يطلُّ برأسه المستطيل بين حين وحين على عالمنا الواسع فيطلق

بعض صيحات ليست بذات بال ، ثم ينكمش عائداً إلى مستقره ، قانعاً ينعم بنوم هادىء ؟ !

لقد عبنا على المرأة أن تخرج فى الشواطىء على الناس مرتدية لبوس البحر ، فهل أدركنا أنها إذ تعرض أمام الأنظار بعض مفاتنها فى هذا الإطار الضيق ، إنما تتنفس بذلك عن مشاعر مكبوتة خفية ، فترفه عن ذلك المارد الضخم الذى سجنته فى قمقم من تلافيف عقلها الباطن ! أو ليس ذلك علاجاً مستحدثاً لصرعى الأمراض العصبية من الجنس اللطيف ؟ أو ليست محافل الزار فيما مضى كانت هى الكفيلة بهذا العلاج ؟ .

سر النجاح كله فى الحياة هو أن تجِدّ مرة وتهزل أخرى ، أن تعنف تارة وتتلطف تارة ، وأن تجعل من وقتك :

« ساعة لقلبك ، وساعة لربك » !

وسر بعد ذلك ، على بركة الله . . .

ولك التحايا خالصات .

من صديقك

عزوز

(صورة وفق الأصل)


نحن كنا بون

كنا رفقة نتحدث ، ملتفين حول مائدة الشاى ، وانساقت بنا الأحاديث إلى رذيلة الكذب ، فمضينا نحمل عليها ، ونكشف عن نقائصها ، ونبين سوء أثرها من تضليل وإفساد بين الناس . . .

وكان بيننا صديق لزم الصمت ، وآثر الإصغاء ، فاتجهنا إليه نستوضحه رأيه ، وهو معروف لنا جميعاً ببطولته فى فن الكذب ، طالما صاغ لنا أحاديث منمقة حسبناها صدقاً ، فوقعنا فى شباكها ، ووضح لنا أنها محض اختلاق - فنظر إلينا على فمه ابتسامته الساخرة ، وقال : « أتريدون منى أن أطارحكم حديث الكذب ؟ هاكم رأيى فى نزاهة وإخلاص ... »

واعتدل فى جلسته ، وقد جذب نفساً طويلا من لفافته ، نفثه فى الهواء أشكالا رائعة . ثم قال :

« ما الكذب ؟ أليس هو اختلاق حادث ، أو تصوير خبر لا أساس له من الواقع ، على أن يكون ذلك فى وضع

يجعل النفس تطمئن إليه ، وترضى به ؟ إذن فالكذاب فنان ، وهو فى فنه كسائر الفنانين من شعراء وروائيين وموسيقيين ، لا بد له من موهبة تعينه على الإجادة ، ولا بد له من إلهام يمده بالكذبة الأخاذة . . .

ولذلك تجد فروقاً بين كذاب وكذاب ، فهذا كذاب من النوع الرخيص يتكلف الكذب تكلفاً ويصطنعه اصطناعاً ، فتخرج الكذبة من فمه عارية لا تلقى إلا الامتعاض . وهذا كذاب فنى لا يلفظ الكذبة إلا عن وحى يتلقاه من شيطانه ، فتخرج أكاذيبه سائغة تعرف طريقها توًّا إلى القلوب . . .

ومن أمارات الكذاب الفنان أن يحب عمله ، شأنه كشأن الفنانين جميعاً ، ولذلك لا يكون كذبه إلا من النوع الراقى الذى لا تكلف فيه ولا سخف . . .

والحق أن للكذب لذة لا يتذوقها إلا العريق فى فنه من أهل الكذب ، فهو حينما يصوغ حكاية من صنع خياله ، ثم يبسطها فى مجلسه ، ويرى أنها هيمنت على الأفئدة ، وأخذت مكانها من التصديق ؛ لا يلبث أن يشعر شعور انتصار وفوز ،

إذ استطاع أن يسخر من عقول جلاسه ويخضع يقينهم لما أراد . وهذا بلا ريب جهد عظيم يتوجه فوز مبين!

ومن الواضح الذى لا يحتمل الجدل أن الكذب يحتل مكاناً رفيعاً فى حياتنا الاجتماعية ، ولا يمكن أن ننكر فوائده للفرد والمجموع : ولكل امرىء أن يسائل نفسه فى يومه : ماذا قال صدقاً ، وماذا قال كذبا ؟ فسيخرج دائماً من الموازنة برجحان كفة الكذب . . . ولقد طالما أنقذه الكذب من مآزق لو آثر فيها الصدق لقاسى من ألوان العناء والتبعات ما لا طاقة له به . . .

وربما أنكر الإنسان على نفسه أن يكون كاذباً ، وادعى أن الذى يقوله ليس كذباً بالمعنى الدقيق . . . ونحن نهون عليه ، ونقول له إن الكذب قد اتخذ أشكالا من التعبير تخفى وجهه : فهو ساعة : اللباقة ، وتارة : المجاملة ، وطوراً : المراوغة ، وحيناً : المرونة ، وآنا : المغالاة ، وغير ذلك كثير يفوق الإحصاء . . . !

ولنصور على سبيل التمثيل بعض شخصيات فذة من أبطال

الكذب الذين لا يجهل نفعَهم للهيئة الاجتماعية أحدٌ .

ولنبدأ بالبطل الأول ، وهو الطبيب ذو الباع الواسع في هذا المجال : بينما يَهُزّ يد المريض ممنياً إياه بشفاء عاجل ، تراه يسِرُّ إلى أقربائه أن يسارعوا إلى تجهيز لحده . . .

فأما البطل الثانى ، فهو : رجل الدبلوماسية : بينما يفاوض دولة فى وضع أسسٍ للوفاق والوئام ، نرى جيوش بلده تتسلســــل إلى أراضى تلك الدولة لتشتبك معها فى حرب وعداء . . .

وهناك البطل الثالث ، وهو التاجر الذى يعتمد اعتماداً كبيراً على قوة خياله وبراعة فنّه فى تزيين بضاعته وترويج سلعته . . .

والأبطال الكذابون كثيرٌ فى كل طبقة وفى كل ناحية ، ولكن البطلَ الذى يجب أن ترتفع مرتبته على كل الأبطال ، ولا يوازَن به واحد منهم على الإطلاق ، هو الكذاب الذى يختص نفسَه بفنه ، أعنى : ذلك الرجلَ الذى يكذب على نفسه ، فيوهمها بحقائقَ ليست فيه ، وفضل هـذا البطل فى

الكذب يعلو على كل فضل ؛ لأنه يجنى من الكذب على نفسه فوائدَ عظيمة ؛ فإذا كان شقيًّا فى حياته ، واستطاع إيهامَ نفسه أنه سعيد ، فقد نجا من براثن الشقاء : إذ أن هذا الإيهامَ يبلغه السعادة حقاً .. وإن كان خائباً فى مساعيه ، وقدَرَ على إيهام نفسه أنه ناجح فيما سعى إليه ، فسيصل إلى تحقيق آماله فى القريب ... ولو تمكن المريض أن يتمثل نفسه صحيحاً مُعافىً ، لأثَّر ذلك فى قواه ، ولتقدمت صحته نحو الشفاء ...

وليس هذا كله إلا مظهراً من ثمرات الكذب فى خدمة المجتمع ونفع الناس ...

على أن الكذب لا يُدنى قطافه إلا للحاذق البصير الذى يحسن وضعه على مواضعه ، واستخدامه وقت الحاجة إليه . فإن من يتخذ الكذب فى كل شىء سرعان ما يعود به إلى عكس ما قصد ، فإذا به يجلب له الضرر والخسار ! ...

وقديماً قالوا : قليل من الخمر يصلح المعدة . ويجوز أن يقال أيضاً : قليل من الكذب يصلح الحياة ... فالحياة كالطعام

إن لم تمزج بالتوابل والأبازير أصبحت غير سائغة . . . ،

* * *

وأراد محدثنا الكذوب أن يتابع الدفاع عن قضية الكذب ، فاعترضه أحد الجالسين قائلا :

إنك بطل الكذب فى مجلسنا ، وحديثك هذا منك ، فهو كذب رائع كعهدنا بك ! . . .

فأخذ محدثنا الكذوب بهذا الاعتراض ، ولم يلبث أن أرتج عليه ، فهمهم صديق ثالث يقول :

لعل هذه أول مرة يصدقُ فيها بطلنا الكذوب . . .

رباط الرّقبة والجورَب

يقولون إن أولَ ما يتجه إليه بصر المرأة حين تصادف الرجلَ هو رِباط رقبتـه ، وهى فى ذلك غير مدفوعة إلا بواعيتها الخفية التى لا تدرك لها تعليلا ، وإنما هى غريزة المرأة فيها توحى إلى عينها ألا تتصيدَ من عامة ملبس الرجل إلا هذا الركنَ الصغير تتخذ منـه مسرحاً لنظرات الفحص والاختبار ، ففى طوقها أن تستدلَّ من رِباط الرقبة على كثير من جوانب شخصيته ومبلغ كياسته . وإذن فهذا الرِّباط يجعل الرجل عند المرأة أمام امتحان عسير لا يدرى نتيجته ، ولعلنا لا نغالى إذا قلنا إن رِباط الرقبة يشبه صَنْجةَ ميزان القبّان ، متى وُضع فى المكان اللائق به اتزن الشخص واستقام ، ومتى انحرف يَمْنَة أو يسرة تذبذب صاحبه واختل ميزانه .

وعناصر هذا الرِّباط ثلاثة : اللون ، والنوع ، والشكل .
فأما اللون فمنه العابس السَّكوت ، ومنه المرح الثرثار ، ومنه ما يمثل الاعتدال والتوسط . وأما النوع فمنه الرزين الثابت ،

ومنه الطائش المَفْهاف ، ومنه مالا تثيره التوافه . وأما الشكل فأهم مظاهره العقدة ، فمنها المنتفخة الضخمة ، ومنها الدقيقة المضغوطة ، ومنها التي على شكل الفَراشة . فتجب مراعاة التناسب بين الوجه وبين ما يختار من هذه الألوان والأنواع والأشكال . ولدينا من الوجوه الهزيل الأعجف ، والمطهَّم المقبّب ، والصُّلب المستطيل ، ولكل منها مايوائمه ويلائمه . فلتكن يقظاً في اختيار تلك العناصر والتوفيق بينها وبين نفسك ، وإياك أن تهمل رباط رقبتك طوال يومك ، فعليك أن تتفقدَه في الفينة بعد الفينة حتى يظلّ ثابتاً في موضعه الذي اخترتَه له على النحو الذي أردته منه ، فلا تدعْه يفلت مختبئاً في زوايا البَنيقة ، أو تتفككُ عقدتهُ فيتدلى على الصدر ويتهدل .

وليس أقبحَ في نظر المرأة من رباط رقبة لا يحتل مكانه المختارَ من صدرك باللون المناسب والنوع المناسب والعقدة المناسبة . وإن المرأةَ لتستطيع أن تتعرّفَ كياستَك ولباقتك ، بل تكتشف سريرتك وطوايا قلبك ، من هذا الرباط الصغير

الذى قد لا تلقى له بالا ، ولا توليه احتفالا .

فيا صاحبي إن أردت أن تكون بعين الرضا مرموقاً ، وأن تنال من الحظوة نصيباً ، فلا تضنَّ على رباط رقبتك باهتمامك ورعايتك . . .

ورباط الرقبة عند الرجل يقابله الجورب عند المرأة فبصر الرجل يقع أولَ ما يقع على هذه الناحية المختارة ! وإن نظرة واحدة إلى الجورب لكفيلةٌ أن تكشفَ مَن هى صاحبته ، ففيه يكمن سرُّ المرأة ، ويتجمع الكثير مما لها من خصائصَ وخصالٍ . فالمرأة على حق حين تبالغ فى العناية بجوربها ، وتنفق عن سعة غيرَ مبالية فى سبيل تخيّره . ولا تثريبَ عليها فى ذلك : لأنها تفهم ببصيرتها أن مبلغ تألقها فى الحياة بوصفها مرأةً متوقف على مبلغ رعايتها لهذا الجورب . فإن له كبيرَ الأثر فى تجميل الساق ، وهو لها كالإطار النفيس للصورة ، أو كاللحن البارع للنشيد . ولهذا لاريب عندى فى أن بدعة السيقان العارية بدعةٌ مقضيٌّ عليها — حتى فى فصول الصيف — بالإخفاق الذريع ، فهيهاتَ أن تصلَ السيدة مهما

أو تيت من المهارة فى فن التجميل إلى إظهار مفاتن الساق إذا تركتها عارية . فالجورب الأنيق يثير فتنة الساق ويزيدها إغراء وروعة ، ثم هو يستر كثيراً من العيوب الخلقية إن كان ثمة عيوب ، وبديه أن الطبيعة وإن كانت جميلة ساحرة لا تستغنى عن يد لبقة توشيها وتبدى من محاسنها ما يخفى . وكما أن الشراب إذا صب فى الكأس الرشيقة ازداد بهاء واستهواء ، فكذلك القدم تروع وتجـــذب إذا صُبَّتْ فى الغلائل اللطاف ! . . .

ولعل أول ما يجب على المرأة فى اختيار جوربها أن يكون نسجه من الرقة والشفوف بحيث يمتزج بالساق امتزاج الخمر بالماء ، فيختلط الأمر على الرائى ، لا يدرى أساق بلا جورب أم جورب ولا ساق . وكذلك ينبغى أن يكون مفصلا على قد القدم محكما فيها ، لا يظهر عليه تغضن ، ولا تبين فيه فضول . فإن أعيب ما يعيب الساق أن يكون بينها وبين الجورب تفاوت وعدم التصاق . فأما اللون فالحكم فيه للذوق ، وإنما يتطلب الأمر أن تكون السيدة فنانة ، بل كيميائية

حاذقة فى مزج لون الجورب ولون الساق ، حتى يتألف من مزجهما لون رائع فتان ، ولتكن نُصْب عينها المعادلة الآتية :

لون البشرة + لون الجورب ودرجة شُفوفه ونوعه = ساقاً خلابة

ولتتجنب السيدة الجورب الغليظ النَّسج : فهو كالمصباح المُعتم المغبرّ ، يُقذى العين ويحجب الضياء .

فنصيحتى إليها ألا تضنّ على ساقها بجورب شفاف انيق مهما يكلفها من جهد ومن مال . . . !

وإذا كان من حق الرجل أن يُعنى برباط رقبته مرة فإن من حق المرأة أن تعنى بجوربها مرات . . .

المرأة وثقافة التبغ

أثمة صلة بين الحب والتدخين ؟ أو هناك من تشابه بين المرأة ولفافة التبغ ؟ !

طالما تردد فى خاطرى - دون سبب ظاهر - هذا السؤال ، كلما أشعلت لفافة أدخنها .. وأنا جد متحير لا يسعفنى ذكائى بجواب . ولقد ظللت فى هذه الحيرة حتى التقيت أخيراً بمعمَّر تركى ، فكه الروح ، عذب الحديث ، رشيق الأسلوب ، ما زالت عيناه الغائرتان محتفظتين بخفة الشباب ورعونته . فعرضت عليه سؤالى وهو الخبير بأصناف النساء والبصير بألوان التَّبغ ، إذ مارس بنفسه زراعة الدُّخان دهراً فى مواطنه الأصيلة ، وتعلق بالتدخين منذ النشأة ، لا تفارق اللِّفافة أنامله إلا إذا أطبق جفنيه لينام . فحدثنى فى هذا الشأن حديثاً طليّاً ضافىَ الذيول . وقد رأيت وفاءً منى لرفاقى المدخنين أن أقدم لهم زبدة هذا الحديث لينظروا فيه ، متفكهين معتبرين !

قال صديقى المعمَّر التركى ، وهو يداعب لفافته :

« اعلم يا بنى - وفقك الله إلى الخير - أن اللّفافة على صغرها وتفاهة مظهرها تسكنُ أسراراً خطيرة عن الرجال وعلاقتهم بالنساء ، فهى تستطيع أن تكشف لك ، غير هيابة ولا وجلة ، عن أهواء المدخنين ومشاعرهم نحو المرأة . وإنى لمحدثك حديث بصير فتدبرْ كلامى ولا تهزأ به :

« إن المرء - ياصديقى - يقبل على لفافته بالطريقة عينها التى يقبل بها على المرأة . فأنت تستهويك اللفافة من بعيد ، فإذا بك تدخن واحدة وأنت بين راض وكاره ، وقد تطفئها وتقذف بها قبل أن تتم تدخينها ، ثم تعود فى اليوم التالى إلى إشعال أخرى . . . ولا تلبث أن تتوطد بينك وبين لفافتك صداقة رقيقة ، تتطور على مرّ الزمن وحكم العادة إلى حب عميق وألفة وثيقة العُرا . . .

« أليس هذا ما يقع لك مع المرأة ؟ تستهويك فتتقدم نحوها وأنت بين مقدم ومحجم ، وما هى إلا عشيّة وضحاها حتى تغرم بها ، أفلا تملك إلا أن تلازمها بعد ذلك فى ظل حب مكين . إن تعوُّدنا شيئاً نألفه - لفافة كان أو امرأة - هوّ سر ذلك .

الرباط العجيب الذي يقيدنا بهذا الشيء ، فلا نرغب في استبداله مهما يكلفنا الأمر . وتأصّل مثل هذه الألفة في نفوسنا له فضائل لا تنكر ، في مقدمتها الإخلاص والوفاء والأمانة لمن تهوى : كذلك لها نقائص واضحة تتمثل في تلك العبودية المحببة التي تكبّلنا بأغلالها المذهبة . ولعلنا لا نخطيء في هذا المقام إذا شبهنا « نيكوتين » التبغ في اللفافة بأكسير الحب عند المرأة ، فهو في الحالتين سمّ ولكنه سمّ لذيذ يشتهى أن يذوقه كلّ رجل ... !

« وافهم يا بني - أنار الله بصيرتك - أن التدخين وضع آخر للتقبيل ، أليس أخذ اللفافة بين شفتيك ، وجذبك النّفَس منها في شوق واستمتاع ، هو ما تصنعه بعينه مع الفم العذب الفاتن عند ارتشاف القُبل ؟ !

« وكما أن لكل لفافة عطراً تتميز به ، فكذلك لكل امرأة عطرها الخاص بها ... ولا أقصد أصناف العطور تصنعها المعامل ، وإنما أعني ما ينفحه الجسد من عطر طبيعي ، فلهذا وحده سلطانه القوى في علاقة الحب .

« وما قولك يا صاحبي ـ عافاك الله ـ في أن المرء يجد في صحبة لفافته تفريجاً لهمومه ومتاعبه، يسرح معها في أفق واسع جميل فينسى الدنيا وما ينتابه فيها من غصة وكرب . أليست حاله أيضاً مع المرأة ؟ إنه لينسى بين أحضانها شقاوة العيش وغضاضة الحياة، ويتذوق وهو على صدرها العطوف نعيم الراحة والطمأنينة

« والآن يا بني، ها هو ذا الرجل أمامك يزعم أن ليس في مقدور أحد كشف عواطفه ومشاعره نحو المرأة، ولكنك مستطيع بنظرة فاحصة أن تصل إلى أغوار قلبه ودخائل نفسه . أمن مدمني التدخين هو ؟ إذن هو من أبطال الحب وزعماء الغرام، وإذن هو أيضاً ممن تتودد إليهم المرأة وتمنحهم رضاها . فإن كان الرجل لم يدخن بعد ـ ولا أقول ان يدخن لأن المستقبل غيب مستور ـ فهو في نظر المرأة شخص تافه لا يعرف من شأن الحب قليلا ولا كثيراً . فلندعه جانباً حتى يستبين مسلكه في غده .

« أما الذي يدخن وقتاً، ثم ينقطع عن التدخين وقتاً،

ثم يعود إليه سريعاً ، فحاله مقبول عند المرأة مشمول برعايتها وعطفها ، إذ هى تعلم أنه مهما يفعل فلن يجد إلى الاستغناء عنها سبيلا . وقد يدّعى الرجل أنه قد قهر نفسه وحكم عواطفه فاستطاع أن يقلع عن التدخين . فهذا فى نظر المرأة رجل لا خير فيه : إذ برهن على أنه خرج من ميدان الحب مهزوماً . وليس للإرادة وضبط النفس دخل فى ذلك على الإطلاق ، وإنما هو الإفلاس فى الحب . . . !

« ولا تنس يا بنى ـ متعك الله ـ أن المرأة تحب الفم المعطر برائحة التبغ . اعرف ذلك حق المعرفة ، واذكره أينما كنت ، فقد يفيدك فى حياتك العاطفية .

« وهناك أمر جدير بالملاحظة ، وهو سلوك الرجل نحو لفافته ، فالرجل الدائم التبديل والتغيير فى نوع اللفافة رجل لا تأمن المرأة جانبه ، فهو كثير التبديل والتغيير فى الحب ، والمرأة تكره هذا الصنف وتأباه . بعكس الرجل الوفى للفافته يستمسك بها ولا يقبل سواها ؛ فهو المغمور دائماً بتقدير المرأة ورضاها .

« فإن كان الرجل مؤثراً اللفافة الرقيقة فهو إلى النحاف الضامرات من النساء أميل . وإن كان يختار اللفافة الغليظة ، فهو يفضل ذواتِ الأوزان الوافية من الحسان . والرجل الذى يحرص على اللفافة المطوقة بالذهب هو الذى يميل إلى المرأة ذات الزُّخرف والزينة ، فإن أبى إلا السذاجة فى لفافته ، فهو توّاقٌ إلى الهدوء فى التجمّل ، كارهٌ للغلو والإسراف فى الأناقة .

« وثمة يا بنىّ ـ كتب الله لك سبيل السلامة ـ طريقة إمساك اللفافة ، فإن لها معنىً تعرف به المرأة صاحبها . فالذى يُمسك اللفافة بين أصابعه يحركها فى غير مبالاة ، رجل يسود الإهمالُ علاقته بالمرأة . أما الذى لا يفتأ يتأمل لفافته ويهصر عودها بين أصابعه ، ويجتذب الأنفاس فى تشوق وتذوق ، فهو الرجل العامر قلبه بفتنة المرأة ، هو من يجيد هصر الخصور بين ذراعيه ، وجذب القبل الحارة بشفتيه . وأما من يتخذ المباسم فى التدخين فأمره لا يخفى على أحد ، ذلك رجل يخشى المرأة ، ويتهيب سلطانها ، فيجعل دائماً بينه وبينها حائلا يدخل الطمأنينة على نفسه !

« بقيتْ يا بنى - أبقاك الله - طريقة إطفاء اللفافة ، وإنها لذات مغزًى قوىّ الدلالة ، فالذى يقذف باللفافة قبل أن يستوفىَ تدخينها هو الملول الذى لا صبر له على صحبة المرأة والمكوث فى مجلسها طويلا . فإن كان لا يرمى باللفافة حتى تلسعَ جذوتها أنامله ، فهو الذى لا يفرّط فى المرأة التى شغف بها مهما يلق فى سبيلها ، ومهما يكتو بنارها . أما من يرمى بعقب لفافته ، ولا يتركه حتى يدوسه مرةً بعد مرة ، فهو الذى يحمل بين جنبيه ضغينة دفينة للمرأة ، ويتشوف إلى الانتقام منها ، وشفاء نفسه بإذلالها !. . . »

وسكت المعمّر التركى ، وقد انسرح فى غيبوبة خفيفة ، فقلت :

ثم ماذا ؟ !

فقال فى صوت خافت متقطع :

ثم ماذا ؟ ! ألم تقنعْ بما عرفته

وألفيت جفنيه قد انطبقا وراح فى دنيا الأحلام .

الغباوة نعيم الأزواج

الزواج . . .

هو بلا شك القضية الكبرى فى المجتمع البشرى . وهو بمعناه الفقهى : تآلف بين ذكر وأنثى من بنى آدم لتتكون منهما أسرة تعمل لخير المجتمع ونمائه .

وإنه فى الحق لنظام فريد طريف . ووجه الطرافة والتميز فيه أنه على ما به من متناقضات متنافرات أثبت جدارته بالبقاء طوال هذه الأحقاب المديدة ، وبرهن على أنه دعامة وطيدة فى بناء مجتمعنا الإنسانى . فلا غرو أن تحفه بعض الشرائع بهالة من الإكبار والتقديس .

أما المتناقضات المتنافرات فى الزواج ، فهى من أنه نظام يجمع بين شخصين اختلفا فى الغالب طباعاً وغرائز ، وافترقا أهدافاً ونزعات . وهذا إلى جانب التباين «البيولجى» و«الفزيولجى» بين الذكر والأنثى على وجه عام ، مما يؤثر فى نفسيهما تأثيراً يتجلى فى هذه المتناقضات المتنافرات .

ونظام الزواج طائفة من العهود والالتزامات يرتبط بها الزوجان مختارَيْن ، فتفرضُ عليهما الإخلاصَ والوفاء والتعاون في ظل المحبة والوئام . وقد تبدو هذه العهودُ والالتزامات ثقيلة الأعباء ، بيد أن الزواج على الرغم من ذلك كله يمضي قُدُماً في بلوغ غاياته ، والأسرةُ تظل قائمةً تتجدد وتتكاثر ، غيرَ آبهة بما يعترضها من عقبات وصعاب .

هذا على حين أن غير الزواج من النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ينهار ويتدهور . فأما نظام الزواج الفريد البديع فانه ثابتُ الأركان متين البنيان لا يتزعزع . وعلة ذلك أنه أثبت خيرَه للمجتمع ونفعَه ، فضَمِن له المجتمع حمايته ، ونهض رواد الإصلاح يوطدون أسسه ويعملون على تحسينه ومطاوعته لحاجات الحياة وَفقاً لروح العصر الجديد .

وفي الواقع أن الزواج بمعناه الأعم نظام طبيعي صادق ، عمادُه العاطفة والغريزة ، وهاتان لاتزولان ما بقي الإنسان ، ولكن العاطفةَ والغريزة شيء والأنانية الفردية شيءٌ آخر ، ومن ثم تنشأ الخلافاتُ الزوجية التي تَثُلُّ عروش الأسر

وتقوّض صروح هذا النظام الفريد الظريف الذى هو روح السعادة بين الجنسين : الذكر والأنثى .

فمن واجب الرجل الاجتماعى أن يفكر فى تعبيد الطرق للزواج ، ورعاية أسباب السعادة فيه ، إبقاء على نظام الأسرة وسلطانها . ولشد ما بحث المصلحون وكتب الكاتبون فى سبيل هذه الغاية ، ولطالما طالعتنا الصحفُ بنصائحَ ظريفةٍ ، تقول للزوجة : « هناؤك ياسيدتى أن تفعلى كَيْتَ وكَيْتَ » ، وتقول للزوج : « من أجلى سعادتك يجب أن تقول كذا وكذا . . . » !

فاذا جاز لى أن أزج بنفسى بين الباحثين والكاتبين فى هذا الموضوع الجليل ، فانى لن أتناوله إلا من ناحية واحدة بكلمة عابرة أرجو ألا أكونَ قد جاوزتُ فيها جانبَ الصواب :

تسعون فى المائة من الزوجيَّات الناجحة ترجعُ السعادة فيها إلى عنصر واحد ، هو : الغباوة ! . . . وهذه الصفة التى نزعم أنها من النقائص الممقوتة هى فى الحق فضيلةٌ ذاتُ أثر كبير فى خدمة المجتمع . ولعل أكبر ميدان أدت خدماتها

فيه هو ميدانُ الزواج . وأقصِدُ بالغباوة أن يكون أحد الطرفين متمتعاً منها بنصيب وافر ، أو بمعنًى أخفَّ : أن يكون الفارق بين الزوجين فى درجة الذكاء ظاهراً . فإنهما إذا تساويا ذكاءً أو تقارباً فهنا بيتُ الداء وموطن الخطر . فالغباوة فى مجرى الحياة الزوجية تعمل عمل الساحر العظيم فى الملاءمة بين الزوجين وفى فض ما قد ينشبُ بينهما من خصومة ونزاع . بل إنها لتؤثرُ أثراً بالغاً فيما هو أكبرُ من الملاءمة والوفاق ، وذلك أنها تعمـــل على تقريب التباين « البيولجى » و « والفزيولجى » القائم بين الجنس الخشن والجنس اللطيف . فهى على هـذا معجزةٌ تنهزم أمامها شتى العوائق والمشكلات !

والأمثلة على صدق هذه النظرة لا تحصى . وحسبنا أن نطرح على القارئ السؤالَ التالى : إنك تصادف فى حياتك الدائرة كل يوم ألواناً من المشكلات ، فهل تفضّلُ أن تقوم هذه المشكلات بينك وبين ذكىّ ألمعىّ جبار الفطنة شديدِ المراس ، أو بينك وبين ساذجٍ قليل الذكاء تلقى فى رحابه الطمأنينة والرضا والقناعة ؟

أنت بلا ريب تقدر فى قرارة نفسك الشخص الذكىّ وتجله ، إلا أنك فى الوقت نفسه تخشاه وتهيبُه وتتجنبه . أما الساذَجُ الذى لا تلقى فى مصاحبته عناءً فإنك تألفُه وتُحبُّه وتعطف عليه . والفرق واضح بين الاحترام الممزوج بالرهبة وبين الحب الممزوج بالحنان والعطف . ونحن فى حياتنا الزوجية أحوجُ إلى المحبة والألفة لا إلى الرهبة والتهيب والحذر . . . .

وثمةَ مثلٌ أخصّ من هذا الكلام العام : بين المشكلات الزوجية مشكلةُ الاستئثار بالسلطة . فالشقاق قد ينشأ بين الزوجين على تنازع الاختصاص . ففى هذه المشكلة تقوم مهمة الغباوة وتلعب دورها فى وضع الأمر فى نصابه ، وفى الإفضاء بالزوجين إلى طريق الوئام والسلام . فمن وهب الله منهما هِبَة الغباوة نراه يتعلق بالسلطة الوهمية والمظهر الأجوف يُشبعُ نفسَه الرخوة ، على حين نجد أذكاهما قد قبض على ناصية السلطة الحقة فى مراكزها الرئيسة ، ثم سيرها وَفق مشيئته العليا فى لباقة وكياسة دون جلبة أو ضوضاء .

وليس فى هذه النظرة شىء من التطرف ، فقد علمتنا التجاريب أن « التكامل » ضرورة من ضرورات الألفة والاجتماع . والتكامل أن يختار الشخص أليفه ممن يمتازون بصفة مناقضة لصفته ، فالشجاع يألف أكثر ما يألف الجبان ، والمحزون أميل بواعيته الباطنة إلى صحبة الطروب الممراح ، والعربيد المستهتر أكثر تعلقاً بالمتزمت المتدين ، والخبيث الماكر أدنى مودة إلى الطيب السمح . وطوعاً لهذا المنطق تعد الألفة بين الذكاء والغباوة ألفة طبيعية لا غبار عليها ولا عجب . . .

فدونكم ياطلاب الزواج نصيحتى صريحة محضة :

اختر شريكة حياتك يا صديقى الزوج ممن آتاهن الله قسطاً لا يستهان به من الغباوة ، فأنت ملاق فى عشرتها وجوارها ظل السكينة والأمان . . . !

ويا سيدتى الزوجة : لا تجعلى صفة الذكاء فى طليعة الصفات التى تنشدينها فى عروس أحلامك . فالخير لك أن تريحى نفسك من متاعب الذكاء ، فإنك لن تصادفى هناءتك

ورفاهيتك إلا على صدر زوج لم تضن عليه الطبيعة بالنصيب الوافر من السذاجة المحببة ، وإنك لن تجدى خالص الحب وصادق العهد ودائم الوفاء فى رحاب الأذكياء !

ربما يقال لى : ألا تعتز الزوجة بذكاء زوجها ، وترى فى فطنته مظهراً من مظاهر الفخر والاعتداد ؟ أو لا يعتد الرجل بذكاء زوجه ويفخر ؟ فأحب أن أهمس فى أذن المعترضين بهذا قائلا لهم : إنهم إذا صارحوا بما فى أنفسهم وتركوا ظواهر الغرور الاجتماعى لتكشفت لهم الحقيقة صريحة بينة ، وهى أن ما يزعمونه من الفخر والاعتزاز بهذه الصفة النبيلة ليس إلا تستراً وتعللا واستكمالا لما قد أصابهم من نقص الهناءة فى الحياة الزوجية ، فليكن لديهم من الشجاعة والحصافة ما يزهدهم فى تلك الظواهر الكواذب . وليواجهوا الحق والواقع فى القياس الآتى ، وهو أن الذكاء من طرف والغباوة من طرف آخر إذا اجتمع شملهما فى الحياة الزوجية كان من أثر ذلك أن ترفرف السعادة بأجنحتها على الأسرة الهانئة . . .

قد تسائلنى : كيف يدرك الزوج مثلا نسبة الذكاء بينه وبين من ينشدها شريكة لحياته ؟ أليس ذلك من الصعوبة بمكان ؟ . . . قد يبدو ذلك مشكلة ، لأن من العسير أن يعترف رجل بغباوته ليبحث عن الذكية . كما أن من العسير أن تجاهر المرأة بغباوتها لترضى لها زوجاً موفور النصيب من الذكاء ؛ ومن ثم يبحث كل من الزوجين عن شريك له أقلّ منه ذكاء ، فيصعب التوفيق فى إنشاء زوجيات متكاملة على هذا التقدير . بيد أن المسألة فى ذاتها سهلة ميسورة ، فإن الشخص الذى يخيل إليه أن الله قد أفاض عليه نوراً من الذكاء ليس من بعده نور ، يجب عليه أن يتقدم من فوره بقلب مطمئن لاختيار زوجة ذكية ! . . . فهذا التخيل الذى ملأ فؤاده هو اعتراف صامت بأنه من السذاجة بالمكان الملحوظ ! . . . فاذا فعل ما أشرت به عليه حُلَّ الإشكال ، وصلُحت الحال ! . . .

والآن : إليكم يا سماسرة الأزواج ، ويا وسطاء الأعراس ، أسوق الحديث : لا تنسَوْا الغباوةَ والسذاجة حين تتمثلون الصفاتِ الممتازةَ للزواج الناجح ، فبذلك تمُدّون يداً بيضاءَ لمحو الشقاء وبسط ظلال الرّفاء . . .

ونحن إذا كنا نرى فى هذه النصيحة التى أسلفناها علاجاً لمشكلة الزواج والهناء فى الأسرة فى المستقبل ، فقد بقى علينا أن نواجه الأمر الواقع فى الزوجيات القائمة التى لم تؤسس على هذا النحو ، أعنى التفاوت بين الزوجين فى الذكاء

فمن الظلم البيّن أن تعالَجَ هذه المشكلةُ الجديدة بتقويض الأسر الحاضرة ، وإعادة بنائها على الأسلوب الجديد ، فلنحتلْ لعلاجها بالوسيلة السلمية الوادعة .

وليس لى إلا أن أتقدم إلى صديقى الزوج ، هامساً فى أذنه : برهن أنك أنتَ « الأذكى » حقاً بأن تتغابى وتتصنع السذاجة ، فتنقذَ بذلك مواقفَ حرجةً كثيرة ، وما أرى إلا أن هذا التصنعَ خيرُ علاج لمشكلات الزوجين الذكيين بل هى العلاج المطلق فى مشكلات الشركاء الأذكياء على وجه عام !

وإن أعياك الأمر ، فلتعودْ نفسك التغابى شيئاً بعد شىء ، ولتتلقه درساً ورياضةً يوماً بعد يوم ، حتى تتأصلَ فيك هذه الصفةُ الغالية . . .

افعل ذلك قرير العين ، وفقك الله للخير ، ونفع بغباوتك المجتمعَ الإنسانىّ !

دنيا الرجل ودنيا المرأة

صديقي عزوز

ما برحتُ أذكر تلك المناقشة العنيفة التي دارت بيننا منذ أيام حول : اختلاطِ الرجل بالمرأة في المجتمع المصري الجديد . فكنت أنت من أنصار هذا الاختلاط ، زاعما أنه يسير وَفق سنة التطور للمدنية الحديثة . وكنت أنا ـ مع الأسف ـ من معارضيه . وقد خانني الحظ في هذا النقاش فغُلِبتُ على أمري ، وتركتك تُزْهَى بالظفر . ولكنني وعدتك أن أكتب اليك رسالة أجمِلُ فيها رأيي وأدعمُه ببراهينَ جديدة ، فإذا كان لساني قد خانني ، فلا أحسب أن قلمي خاذلي ، وقلمي هو نصيري دائماً في الملمات .

إن رأيي الذي أعرضه في هذه الرسالة هو وجوب الفصل بين الجنسين في المجتمع ، أعني أن يكون للمرأة مجتمع خاص ، أو دنيا مستقلة بها لا يقربها الرجال . كذلك

يكون للرجل دنياه التى لا يجتمع فيها بغير جنسه الخشن .

لست من الطهريين الشذاذ الذين يغالون فى حماية الفضائل ، فأزعم أن الذى دعانى للدفاع عن هذه الفكرة هو خوف الفتنة : كلا ... إنه فى الحقيقة « حب النفس » أجل إنها الأنانية حيث تتجلى رغبة الفرد منا ، نحن الرجال ، فى استكمال أسباب الراحة ونعومة البال .

وقد تدهش من هذا القول ، وتسأل على البداهة : وهل فى صحبة المرأة عناء ؟

قد يكون ذلك ، وقد لا يكون !

المرأة يا صديقى شخصيتان متناقضتان : شخصية تتوضح فيها البساطة الطبيعية المحببة الخالية من البرقشة والتزويق . تلك هى شخصية المرأة خارج المجتمع ، أما شخصيتها داخل المجتمع بمجتمعنا العصرى الذى يضم الجنسين ـ فشخصية عجيبة يسودها التكلف ، وتتحكم فيها الصنعة ، ففى الحالة الأولى نراها مصدر الهناءة الحقة ، يفيض من حولها الحنان والوفاء والحب . أما فى الحالة الأخرى فاننا نجدها قد

تحولت دمية متحركة يسيطر عليها حب الظهور والرغبة فى التنافس . ومن ثم تصبح مصدراً لأشتات المتاعب والهموم .

لعلك توافقنى إذن على وجوب الفصل بين الجنسين . فنلغى ذلك المجتمع المختلط ، ونفرّق بين الجنسين ، فنكون بذلك قد رددنا المرأة إلى دنياها الحقيقية ، حيث الفطرة السليمة الصافية البعيدة عن أكاذيب الحياة وخُدَعِها .

إن أقوى صورة للمجتمع المختلط هى « الصالون العصرى » . و « البروتوكول » السائد فى هذا « الصالون » هو الرياء . حقاً يا صديقى ، إنه الرياء فى أجلى معانيه . فأنت فى هذا « الصالون » كأنك فى سجن ترسف أينما تحركت فى أغلال مرهقة . محتوم عليك أن تجرى فى أحاديثك وإشاراتك وتصرفاتك وفق نظام « البروتوكول » . فاذا أردت أن تضرب عن هذا النظام صفحاً ، وتطلق نفسك على سجيتها : واجهت على الفور عقبات يتحطم عليها إخلاصك وصدق طويتك . فأنت مكتوف : أعضاؤك مقيدة

وأعصابك متوترة ، ولسانك دائما طوع مراقبة صارمة . فلن تسمح له أن يلفظ كلمة من الكلمات إلا بعد حساب عسير ، خشية التورط فى إثارة مشكلة دبلوماسية خاصة بآداب « الصالون » .

ولا تنس أن آداب « الصالون » تحتم على الرجل ان يقدم خضوعه الكامل للمرأة ، وأن يضع نفسه تحت تصرفها . فلزام أن يفطن من تلقاء نفسه إلى ما يجب أن يقدمه لها : علبة الثقاب يجب أن تكون دائما فى يدك ، فاذا تحت سيدة تدنى لفافة من فمها سارعت اليها فأشعلتها . وعليك أن تدور بعينيك فى أرجاء « الصالون » فاذا رأيت ضيفة بلا جليس قمت من ساعتك اليها فجالستها ، وانطلقت تعصر رأسك فى تصيد حديث تفكهها به . وثمة مشكلة نسميها « مشكلة المناديل الساقطة » وهى المناديل التى تتساقط من السيدات على عمد أو غير عمد ! فلا بد أن تكون يقظاً لها : لا تدع منديلا يهوى على الأرض حتى تهوى عليه ، ثم ترفعه إلى صاحبته فى انحناءة ملتوية ، وابتسامة

عليك يا صاح أن تراقص هذه ، وتجامل تلك ، وأنت لا تنفك تقبل الأيدى ، وتوزع التحيات على من تستحق ومن لا تستحق ، ثم تلصق على فمك ابتسامة مزورة لا ترف ، وتتابع على لسانك النكات المتحذلقة واحدة إثر واحدة ، وترسل الضحكات متكلفة باردة ، ولو لم تستشعر فى قرارة نفسك ميلا إلى الابتسام !

إن « الصالون » المختلط يقتل فى الجنس الخشن رجولته الممتازة ، إذ تطغى على الفرد منا شخصية المتظرف الرشيق . نبالغ فى إظهارها فلا نلبث أن نغدوَ من المتخنثين السمجاء . وهو يقتل فى الجنس اللطيف روح الأنوثة الصافية ، إذ يحيلها دمية بلا روح تشمل نفسيتَها الحذلقةُ الممقوتة ، فإذا التقى الرجل بالمرأة فى هذا « الصالون » تولّد بينهما نوع من الكره ، وتطايرتْ تلك الأحلامُ الجميلة التى كان يتخيلها كل منهما فى صاحبه . فالصالون مقبرة الحب بلا مراء .

هذا شأن المجتمع المختلط . أما المجتمع ذو الجنس الواحد ، فصورة تختلف عن تلك الصورة جِدّ الاختلاف

فأنت فى « مجمع الرجال » تحس على الفور بالراحة تشيع فى نفسك ، والطمأنينة تغمر قلبك . وليس ثمة شعور بالغربة يجثم على صدرك ، إذ تجدك فى بلدك بين عشيرتك ، ترسل نفسك كما هى ، لا رقيبَ هناك على لسانك ، ولا حاكم بأمره يصرّف أمرك ، تجلس كما تشاء ، وتبتسم إذا أحسست باعثاً على ابتسام . وإذا شاع الطرب بين حناياك ، وضحكت ضحكةً مجلجلة فاض بها وجدانك فى إخلاص وصدق ، لم يعترضْ عليك معترض ، ولم يقلْ أحد إنك فاسد الذوق غيرُ محتشم ، بل يستجيب الإخوان لصدى ضحكتك مهللين . أنت فى دنياك الأصيلة ، دنيا الحرية الفسيحة ، دنيا البساطة المحببة .

كنا فى العهد الماضى . عهد « الانفصال » ذلك العهد الزاهى بالرومانسية الجذابة ، نعيش دائماً فى أخيلة ساحرة ، وأحلام جميلة . كانت المرأة خلف البرقع أو « اليشمك » دنيا بعيدة المنال تحوطها الأسرار وتكتنفها سحب رقيقة تضفى عليها روحانية خلابة . ننظر إلينا من وراء السّجوف

أو النوافذ المقفلة ، كأنها حورية من حور الجنة التى وُعد بها المتقون ، نقنع منها بالنظرة أو الإيماءة ، ثم نطلق خيالنا يُكمّلُ لنا صفاتها ، مرددين قول « اسماعيل صبرى » فيها :

أنتِ روحانيـــة لا تدّعى أنّ هذا الحسنَ من طين وماء !

أما اليومَ فقد قضى « الاختلاط » على هذا الحلم الذهبى ، وكشف لنا عن الحورية السماوية ، فإذا بها مثلنا من ماء وطين ! أجل لقد ذبحنا الدّجاجة التى كانت تبيض لنا كل يوم جوهرة ، فلم نجدوا أسفاه فى أحشائها شيئاً .

ارجعوا بنا القهقرى إلى عهد « الحجاب » وأعيدوا لنا فردوسنا المفقود . ردوا علينا « الأطياف الرقيقة الفاتنة » فوالله ما خلقتِ يا ناعسةَ الطرف إلا لتكونى حُلم الرجل الشهى ، ومسرح خياله البهيج ، ومنبع إلهامه الفياض !.

إلىَ هنا أقف بالقلم لأحييك أيها الصديق تحية الختام ، وبودى أن يكون القلم قد أنصفنى منك ، وأن تكون قد رجعت إلى رأيى عن رأيك ، والسلام .

كيف تأسرين قلب الرجل

ليس منا من يجهل أن الغرض الذى تتجه إليه المرأة
حياتها ، هو أن تمتلك قلب الرجل ، أو على الأقل أن ت
إعجابه ورضاه . والحق أن ذلك لا يَعيبُ المرأة ؛ فهى
تسير فى ذلك وَفْقاً للقانون الطبيعى الذى يجعل منها قائد
وهى تؤدى فى الحياة هذه المهمة السامية التى خلقت له
بواعيتها الخفية حفظاً للنوع ، فمن الظلم الشديد والخطأ ا
أن نصوّبَ إليها سهام النقد ؛ لأنها تُعنَى بزينتها إلى
الأقصى ، تلك الزينة التى لا يفتأ يشكو منها الآباء والأزو
وما هذه الزينة فى الواقع إلا فخاخ ومصايد ألهمتْها
بغريزتها لكى تملك قلب الرجل ، وتأسر مشاعره . وقد ـ
على الرجل أن يكون الفريسة دائماً ، ونحن لا نغلو إذ
إن هذه أيضاً هى مهمته الطبيعية فى الحياة ! فعمل المر
تصيد ، وعمل الرجل أن يُصاد ؛ ذلك هو الوضع
للمسألة ، أما غير ذلك فتزوير ونفاق !

والآن وقد فهمنا أن مهمة المرأة أن تكون الصائدة ، صار من واجبنا أن نبذل لها المعونة ، ونمهد لها السبيل : تقوم بعملها على الوجه الأمثل ؛ فنكون بذلك قد أسدينا إلى الحياة الاجتماعية خدمة لازمة . . . !

إذن كيف تستطيعين أيتها السيدة أن تمتلكى قلب الرجل ؟

قد تكونين جميلة ، غير أنك لا تجدين من الرجل كل عناية وعطف ، أو قد تكونين قد نلت فى مغامراتك بعض انتصارات وقتية لا تلبثين بعدها أن ترجعى مهزومة كاسفة البال !

وقد تكونين — لا قدّر الله — غير جميلة ، ونحن نذكر ذلك على سبيل الوهم والافتراض ، فتجدين أن الله قد حرمك وسيلة الظفر بقلب الرجل ، والتلاعب به ، والتباهى بامتلاكه !

ربما كنتِ هذه أو تلك ، فلا تيئسى على أية حال ، ولا يداخلنك الشك فى قدرتك على الظفر . . . !

قليلا من التدبر ، وشيئاً من الصبر . . . .

فى استطاعتك أن تكونى محبوبة تترامى تحت أقدامك القلوب . الحياة أمامك ميدانٌ نصر دائم ، والرجال حولك أسرى مذعنون .

ثمة دواءٌ قريب المنال ، لا يستعصى عليك أن تقتنيه ..
لا أقصدُ العقاقير ، فهى من اختصاص طبيب الرشاقة
ولا أقصدُ التزينَ فهذا شأن أستاذ التجميل ، ولا أقصدُ
الرياضة الجسمية ، وما تستدعيه من تدريب وتدليك واتباع
نظام فى الطعام ، فذلك مما قتله الفنيون بحثاً وإرشاداً ..

أريد دواء لا تحتويه حقائب هؤلاء الناس من طلاب
المال ، ولا يدخل لهم فى حساب .

الدواء الذى أعنيه تجدينه فى نفسك . هو سلاح ماض
كثيراً ما أهملتِ استعماله ، فضاع عليك خيرٌ كثير ...

ذلك الدواء هو :

الابتســـامة !

نعم هو الابتسامة !

إخالك تهزئين ، وتقولين :

طالما ابتسمنا ، فلم تُجْدِ علينا الابتسامة نفعاً . . .

أنا لا أعنى الابتسامة فى مظهرها ، وإنما أعنيها بروحها
ومعناها . . .

الابتسامة أنواع كثيرة . .

منها الابتسامة التى تشع بغضاً وحقداً . . .

ومنها الابتسامة التى تفوق فى برودتها الجليد .

ومنها الابتسامة التى تسيل مداهنة ورياء . . .

ومنها الابتسامة السليطة التى تتضمن فى صمتها الرزين ألواناً من السباب والشتم !

ومنها الابتسامة السافحة ، وهى كالحرب الخاطفة ، شديدة فى تدميرها وتخريبها وتحطيمها للقلوب الهانئة المطمئنة .

ومنها . . . ومنها . . .

بيد أن الذى أعنيه هو الابتسامة الصادقة : تلك التى تشرق وداعة ، وتتجلى إخلاصاً . هى الابتسامة التى نود أن تجعلها المرأة محور اهتمامها وغاية قصدها .

الابتسامة التى أخصها بالكلام ليست الابتسامة الموضعية ، ليست ابتسامة مكان فى الوجه ، ليست ابتسامة الفم وحده . . .

وإنما هى معنى الابتسام يشيع فى الروح ، ويسود شمائل المرأة على وجه عام . .

يجب أن نُحِسَّ الابتسام فى مشية المرأة ، ونشعر به متجلياً فى جِلستها . ونسمعَه صافىَ النغم فى لهجة حديثها ، ونراه ملتمعاً وضّاءً فى نظراتها ، ونلمِسَه ريانَ بهيّا فى جميع شمائلها ... !

ولكن كيف تحصل المرأة على هذه الابتسامة ؟

قد يكون فى طبعها العُبوس ، وقد تكتنفها فى الحياة أسباب تبعث على الاكتئاب ، ولكن هذا وإن عظم لا يسد عليها الطريق ...

الابتسامة فن من الفنون الجميلة ، يجب أن تتعلمه المرأة وتتعرفه منذ حداثة السن ، فإن فاتها ذلك فى الماضى فما عليها إلا أن أن تستدركه من ساعتها ...

التطبع أولا ، وبعد ذلك يأتى الطبع .

فإذا تعلمت المرأة كيف تبتسم ، أو بمعنى آخر كيف تُدْمِجُ الابتسامة فى شخصيتها . وعوّدت نفسها ذلك : أصبح الأمر عليها سهلا ميسوراً .

يجب أن تخصص المرأةُ وقتاً من يومها تقضيه فى هذا

الشأن ، كما تقضى أوقاتها الأخرى فى رياضة جسمها ،
وتجميل أظفارها ، وتصفيف شعرها ...

فإن آمنتِ يا سيدتى بهذه الفكرة ، وخرجت بها إلى
حيز العمل ؛ فستَرَيْنَ أن الابتسامة الصافية تجعل الجمال
الرخامىّ ينبض بالحياة ، ويُصبحُ جمالا إنسانياً ، يستهوى
العواطف ويستحوذ على الميول . وستعرفين كيف تنقلب
الدمامةُ ملاحةً مستحبة ، إذا خلعتْ عليها الابتسامة طابَعَ
الظَّرف والمؤانسة ...

فلتتخذْ المرأةُ من الابتسامة طابَعاً لشمائلها وحركاتها
وإشاراتها وأحاديثها ، ولتدعها تشيع فى كل مسالك حياتها ،
ثم لتنتظرْ بعد ذلك كيف يكون انتصارها فى مواقع الحياة .

المرأة بلا ابتسامه :

كالوردة بلا عبير .

كالموسيقى بلا لحن .

كالجسم بلا روح

فلسفة التقبيل

قالت زوجة ذكية :

إذا قبّلني زوجي قبــــلة ، علمت أنه محب صفيّ لي .

وإذا قبلني قبلتين أدركت أنه بدأ يتطلع إلى غيري ،

فإن قبلني ثلاث قبلات ، أيقنت أنه لم يعد لي في قلبه مكان . . . !

كيف تأسر قلب المرأة

قلت فى حديثى : « كيف تأسرين قلب الرجل ؟ »
إن نجاح المرأة كله متوقف على الابتسامة . الابتسامة معنى ومبنى ، روحا وجسما . وقد اخترت « الابتسامة » لأنها روحانية تتفق والجنس اللطيف . أما الرجل فان لزاما على أن أنتقى له شيئاً لا يتصل بالروح فى كثير ولا قليل : لأنه - والاعتراف بالحق فضيلة - قد طبعته بيئته من قديم الأزل بالطابع المـــادى البحت ، فنظرته إلى الحياة نظرة يتجلى فيها هذا الطابع ، على حين نرى المرأة قد انصبغت حياتها « بالخيال والأحلام » . وهذا هو الفارق الذى يظن بعض أنه يباعد بين الجنسين ، ويقيم بينهما فاصلا من المحال تخطيه . ولكن هذا الظن فى الحق وهم باطل ....
فإن ما يخاله البعض أكبر عائق فى سبيل الألفة والتقرب هو دون شك أرسخ دِعامةٍ فى سبيل الحب والامتزاج ؛ فكل من الجنسين يُحب من الآخر ما لا يجده فى نفسه . المرأة على تباهيها بصفاتها واعتزازها بها تمقت فى الرجل هذه

الصفات . والرجل يكره فى المرأة صفـاته نفسها ؛ فهو لا يرضى أن يرى صاحبته منافسة له فيها . وعلى الجملة لا يطلب الرجل فى المرأة سوى الأنوثة ، أما ماترغب فيه المرأة من الرجل فهو الرجولة . وقديماً شرح الناس هاتين اللفظتين الجامعتين لأشتات المعانى ، وحاولوا تحديد مدلولهما . ورأيى أن تحـديد معنى الرجولة أو الأنوثة لا يحتاج إلى شرح وإفاضة . وفى إمكاننا أن نُجْمِلَهُ فى كلمتين . فنضعَ أمام كلمة أنوثة لفظة : ابتسامة ، فهى فى نظرى مختصر جامع لمدلول تلك الكلمة . أما ما يسعنا أن نضعه أمام كلمة رجولة فهو لفظة ·

مِعْدَة . . . !

أجل أن المعدة هى دِعامة الرجولة الحقة ! والرجل الذي يأكل جيداً ويهضم جيداً هو الرجل الكامل فى نظر المرأة ! . فاذا قلنا إن الابتسامة هى سلاح المرأة الماضى فالمعدة هى الجيش القوى المدرب الذى يحشده الرجل لغزو قلب المرأة . . !

المعدة هى المعسكر الحافل بشتى الفرق ، تبعث بها إلى مختلف أعضاء الجسم دما قويا يكسبه جَلَداً ونشاطا .

بالمعدة القوية تعتدل قامتك ويشتد ساعدُك ، ويتورد وجهك ، وتتوهج عيناك بلمعة الحياة الحقة ..

المعدة القوية هى التى تمنحك العزم والإرادة والجرأة والرغبة فى الكفاح واحتمال الشدائد .

أليست هذه هى صفات الرجولة الحقة التى تطمئن اليها المرأة ، وتبتغيها من صاحبها ؟ .

فإذا كنت يا صديقى ممن ابتلاهم الله بالخيبة فى الحب فالأمر هين : عالج معدتك . لا تقل : كيف أعالجها ؟! داوها بأعشاب العطار ، أو عقاقير الطبيب ، أو عند الكهربى حيث يسلط عليك التيارات القصيرة والطويلة ، أو فى مسارح الرياضة حيث يفرضون عليك التمرينات المتنوعة ... حاول أن تداوىَ معدتك بأية وسيلة شئت ، فاذا نجحت فى مسعاك فأنت من نفسك أمام شخص آخرَ لا يمت بصلة إلى شخصك القديم . فتى لا يتلعثم لسانه ،

ولا يخذله صوته ، ولا يعصيه بيانه . فتى يملك زمام نفسه ويخضعها لسلطان إرادته . فتى يرى الدنيا وقد استنارت بعد ظلمة وتطلقت بعد اكتئاب ، واستيقظت بعد سُبات ! فتى يرى الحلمَ البعيد المنال حقيقة دانية القطوف .

ليس من نصيحة عندى للخائب فى الحب إلا أن أقول له : أصلح معدتك وعالجها ، وإن استطعت أن تستبدل بها معدة أخرى صحيحة ممتلئة بالعافية فافعل ولا تتردد !

وأنت أيهـــا المتمراح الطروب إذا أحسست مرة أن مواهبك فى الحب تتهيأ لخذلانك فاعلم علم اليقـــين أن لمعدتك العنيدة يداً فى الأمر ؛ فاهرع من فورك إلى أقرب صيدلية فتناول حَـفْـنَـةً من مسحوق (بيكربونات الصودا) المشْـبَع (بسلفات المغنزيوم) فانك لا تُعَـتِّـمُ أن تُـحبِط المؤامرة فى مهدها ، وتغدوَ سيد الموقف . . . !

المعدة هى « بيت الحب العتيد » يشِـبّ ويترعرع فى مغانيهـا ، ويكـبُر ويعظم فى مجاليهـا . ثم يشيخ ويفنى فى محابسها . . . !

يقولون : إن الجاه والثروة والجمال من عوامل الانتصار في الحب . حقاً إنه انتصار ، ولكنه انتصار مزور مستند إلى دعائم واهية كثيراً ما انهارت فانهار الحب على أثرها . أما الانتصار القائم على « المعدة » فهو انتصار حاسم دائم ليس وراءه إخفاق !

ولعل مما يجمل — على ذكر الكلام في المعدة — أن نتحدث بكلمة أو كليمة في آداب المؤاكلة واتصالها بالحب ؟

تعفف المرأة وتأنقها في الأكل مستحب ، فهو يوافق مزاجها . أما الرجل وبخاصة ذلك الذي يطلب النصر في الحب ، فالتأنق في الطعام والتعفف عنه شيء لا يليق به ولا بكرامته . فالرجل المقدام هو في كل الأمور مقدام ، والمحظوظ في الطعام محظوظ في الغرام ... !

والمرأة في الواقع تميل إلى الرجل النهم ، وإن تظاهرت بالاشمئزاز منه — تميل إليه بواعيتها الخفية ؛ لأنها تعلم أن الذي يستطيع أن يصرع الدجاجة ويلتهمها في طرفة عين هو الذي يجيد الهجوم في ساحة القلب . ويصرع خصمه

الحبيب في خطفة البرق ...!

ونحن لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الحب ليس إلا وليمة فاخرة من ولائم الحياة ، وما المرأة إلا اللونُ الشهى من ألوان الطعام فيها .

فنصيحتى إليك يا من تريد أن تكون بطلا فى مغامرات الحب أن تدع التأنق والتعفف جانباً ، فأقبل على الطعام مشمراً مهللا ، تتفتحْ لك قلوبُ الحسان فى سهولة ويسر .. !

أما أنت يا من يمسك بأطراف أنامله الشَّوْكةَ والسكين . ثم يقتطع من رغيفه اللقيماتِ الضئالَ ، يزجها بين أسنانه ويلوكها فى فمه كما يلوك المريض المتأفف حباتِ دوائه . فأبشر بالخيبة المستعجِلة يا صاح ... والله يرحمك رحمة واسعة ويُلهمنا فيك الصبر والسُّلوان ... !

دنيا الصحافة ودنيا المرأة

المرأة والصحافة ، هل بينهما تشابه !

جال فى خاطرى بغتة هذا السؤالُ ، حينما وقفتُ مرة أمام بائعِ صحف — غيرِ جوّال — بسط على مِنصة متواضعة بضاعته من مختلف الجرائد والمجلات . وكانت فى أثوابها الزاهية ، وألوانها الناصعة ، تجتذب أنظار العابرين ، وتستوقف الناس على اختلاف طبقاتهم ، فيقصدونها أفراداً وزرافاتٍ . يجتلون مفاتنَها ، ويتخيرون ما تهفو إليه أفئدتهم منها ...

وقفت أتأملها فيمن وقف يتأمل ، أستمع إلى البائع وقد انطلق فى بلاغة مستفيضة وحماس متأجج يعدد مآثرها ويكشف محاسنها ما ظهر منها وما استتر — فانسرح بى الفكرُ إلى الماضى السحيق ، فتراءت لى « سوقُ الغوانى ، تغَصُّ بالجوارى الفاتنات ، يَقِفْن على المنصة يعرضن مفاتنهن على الرائدين ، وعن كثب منهن نخّاس لبق جهورىُّ الصوت ، راح يستثير الصبوة فى القلوب بأوصافه الخلابة

الساحرة . . . ورأيتنى أهمهم فيما بينى وبين نفسى : « ما أشبه الليلةَ بالبارحة » كما يقولون !

وتركت بائع الصحف ، وقد حملت منى مغتبطاً رزمة من نخبة المجلات ، تأبطتها فى رفق ورعاية وأنا أهجس : ستكون موضع حفاوتى والتفاتى حين أءوب إلى دارى ، أقضى معها وقتاً بهيجاً بين أقداح الشاى اللذيذ ولفائف التَّبْغ العطرة ، نتندر ونسمُر ، هازلين مرة وجادين أخرى . . .

تمثَّل لى هذا المنظرُ غير مرة ، فأوحى إلىّ أن أسائل نفسى : أثمةَ مشابِهةٌ حقاً بين المرأة والصحافة ؟ ومضيت أدرس « الموضوع » فى روية وتعقّل ، فانتهيتُ إلى هذه النتائج التى أقدمها ، وعلىّ وحدى تبِعتها دون سواى !

الحق أن بين المرأةِ والصحافةِ خصائص عامة ، ونظائر خاصة ، تجمع بينهما . . .

فأما الخصائص العامة ، فمنها : الزُّخرف « التواليت » وهو فى نظرى أقواها . . . فالمرأة أكبر ما تكون عنايةً بزينتها ، وحرصاً على أناقتها ، لأنها بهذه الزينة تجتذب الأنظار ،

وبتلك الأناقة تجتلب القلوب . وكذلك الصحافة ، يجب عليها أن تُعْنَى بالمظهر ، طوعاً لرغبة القارئ الذى يستهويه البريق ... المرأة تَسْحرُ بطرفها الكحيل ، وثغرها القرمزىّ وخدها الوردى ، وبَشَرتها البضة المرتوية بالعطر والدهان : إلى ما تهتم به من ملبس أنيق ، وزىّ رشيق ... والصحيفة تستلفت الأنظار باتخاذ الألوان ، وابتكار الأوضاع ، واستخدام الصور ، فهى تتفنن فى رسم العُنوانات ، وإعداد المقالات ، مجتهدة فوق ذلك أن يكون لورقها رقة الملمس وإشراقة المظهر . وهذا « التواليت » درجات تتفاوت ، فمنه البالغُ فى الترف ، ومنه الرخيص فى الأناقة ، ولكن المرأة والصحافة كلتيهما على أية حال تلتزمان جانب التزين والتجمل مهما يكن من أمر ...

وواضح أنه لا يكفى « الزُّخرف » وحده ليُكمّل المرأة الجميلة ، لا بدّ مما يسمونه « السكس أبيل » أى « الجاذبية الشخصية » ذلك العاملُ الخطير فى اقتناص المهج .. وكذلك لا بد من هذا العامل فى الصحافة ، وهو يتمثل

فيما يُحسه القارئ من روح الصحيفة التي يُؤثرها ، فكلما كانت الجاذبية قويةً كانت شخصية الصحيفة أقدرَ على بلوغ ما تريد من أهون سبيل . . .

ومن تلك الخصائص العامة ما نُجمِله في كلمة واحدة ، هي : الثرثرة . . . فللمرأة ـ كما سمعنا ـ في مَيْدان الكلام قصَبُ السبق ، والصحافة ـ كما نعلم ـ بِضاعتها القول ، على الكلام تقوم ، وبالكلام تعيش . . . وأنت مضطر حين تتناول صحيفة أن تستمعَ ، وأن تستمع إلى النهاية . وهكذا الشأن مع المرأة ، فإذا جلست إليها اضطُررتَ إلى أن تستمع ، وأن تستمع إلى النهاية ، إن كانت هناك نهاية . . . كذلك يقولون ، والعهدة على الرواة !

ومما يذكر من الخصائص : « العاطفة » فبين المرأةِ والصحافة شبهٌ كبير من هذه الناحية . فالعاطفة عنوان المرأة ، إذْ هي مصدر الحنان والطمأنينة والسكينة ، وهي الصدر العطوف الذي يجد فيه الابن حضنَه الأمين ، ويجد فيه الزوج سَكنه المحبوب . والصحافة ترى فيها الإنسانية جمعاء

مورد العطف والبر والعون ، فهى مُتنفَّس الشاكى ، ومفزع اللاجىء ، وسماء الداعى ، ومَهبِطُ الآمال والأحلام . . .

هذا ولا ننسى أن العاطفة فى المرأة والصحافة لا تنتج دائماً الحنان والحب ، بل إنها قد تكون مَجْلبَ هم وشقاء . فكم جنت عاطفة امرأة على الرجال ، وكم شقيت الإنسانية على يد ضرب من الصحف لا يخطئه المؤرخون !

ولو شئنا أن نلخص تلك الخصائص العامة ، لاستوعبناها فى ثلاث جمل : مظهر فتان ، ولسان قوال ، وقلب تضطرم فيه العواطف متباينة !

والآن نخلص من التعميم إلى التخصيص . فنذكر النظائر بين الصحف والنساء :

هنالك الصحيفة التى إذا لازمتها خيل إليك أنك تجالس سيدة نبيلة ذاتَ حسب ومجد ، تتفوه بالكلمة بعد روية وتدبر ، وتتحدث فى إباء للصغائر وترفع ، وتسمعك الشريفَ الساميَ من الأفكار والملاحظات . . . وهذه الصحيفة كشبيهتها السيدة إذا ظهرت فى زينتها فإنها تحرصُ على

الوقار والاحتشام فى أساليبِ التجمل . فأنت أمامها خاشع البصر ، فيّاض القلب بالمحبة الممزوجة بالإجلال والتقدير .

وبين الصحف صحيفة إن طالعتك فإنما توحى إليك على الفور صور الغانية التى خلقت لتتاعّب بالعقول وتتصيدَ الأفئدة بزخرفها البراق ، فأنت تجالسها لحظة تستمتع بظَرفها وخلابتها ، ولكنها متعة مرهونة بوقتها فى الفترة بعد الفترة . ليست عميقة الاتصال بالفكر ، ولا باقية الأثر فى أطواء النفس . . .

وثمة صحيفةٌ أخرى إذا قرأتها أخْطرَتْ ببالك بنت البلد الصخّابة ، ذات المُلاءَةِ والعصابة والطلاء الرخيص من « حسن يوسف » ، الملففة فى ثوبها المبرقش « بالترتر » اللماع ، التى تمضغ اللادن وتفرقع به بين أشداقها ضاحكة لاهية غير مبالية بشىء . تلك هى التى تُسمِعك ـ رضيتَ أو كرهت ـ ألواناً من الغمز واللمز المكشوف ، فإن أعياها المنطق والبيان آخر الشوط أخرجت لك لسانها ودقت بيديها وتلوت بخصرها فى عبث وتخلّع . . .

ولا ننسى الصحيفةَ التى تماثل السيدة الورعة التقية التى لا تبرح سجّادتها ، ولا تغفل عن مسبحتها ، ولا تقعد فى العام بعد العام ، عن حج بيت الله الحرام ، فإن مدث إليك

بالسلام يدآ أخفتها فى طرف خمـــارها حرصا على سلامة الوضوء . . . وإنك لتغادر مجلسك مع هذه الصحيفة أو السيدة إلى المسجد توا ، لتتوب إلى الله ، وتستغفره مما تقدم من ذنبك !

وما دمنا فى صدد التمثيل لأنواع الصحف ، فلنعرض للصحيفة التى تشبه السيدة العاقر ، فهذه تجهَدُ جهدها فى إصلاح علتها . ولكنها على الرغم من كل شىء تظل وحيدة بمعزل عن الحياة ، لا وليد ولا حفيد ولا أنيس . . .

وإنى وإن كنت قد أتيت بأمثلة كافية من الصحف والنساء ، فقد أعيانى أن أجد فى الصحافة نظيرةَ العذراء الخجول ، تلك التى إذا كلمتك غضت من بصرها وتلجلجت فى حديثها ، وإذا خطت أمامك تعثرت فى ثوبها ، واضطربت فى مشيتها ، ولن تحظى فى مجلسها بغير الهدوء والسكون . . . فان هذا النوع من الصحف لم يوجد ، ولن يوجد أبداً . . . وليس وزر ذلك على الصحافة ، ولكن على القراء الذين لا يروقهم هذا الضرب . فان حاول أن يظهر ، لم يلبث أن يزول بعد قليل .

فالصحافة أولا وأخيراً كالمرأة :

نُحِبُّها ، لأنها رَيْحانةُ الحياة !.

ونتوقاها ، لأنها مبعث للقلق ، ومنبع للعناء !.

رجعة إلى العبادة والمركوب

لا جدالَ فى أن المدنية الحديثة تحوى عناصر التقدم والرقى ، وتهيء للإنسان حياة تمتّع ورفاهيـــة . فلم يكن ثمّةَ بد من أن نأخذ بهذه المدنيـــة ، حتى نسايرَ الأمم المتحضرة ، ونشترك فى الحياة الاجتماعية التى يحياها العالمُ المتمدن . وقد نهضـــنا - كُتّابا ومصلحين - ندعو إلى الاغتراف من مناهل الحضارة الجديدة ، حتى لا نتخلف فى ركب الحيـاة ، كبعض الأمم المعتزلة . وقد أثرت الدعوة أثرها ، فاشتركنا - حكومة وشعبا - فى التزود من الزاد العصرى ، ووهبنا قسطاً من جهودنا لمناهضة الرجعيـة ، وتخطّى الحواجز التى يقيمها أنصار التقاليد الموروثة بخيرها وشرها . ولما مضينا شوطاً بعيداً فى هذا المضمار ، ألفينا الدعوة إلى المدنية الحديثة تتغلغل إلى الأعماق ، وتشمل مالم يكن فى الحسبان أن تصل إليه . وبعد أن اطمأنت نفوسنا إلى هذا الانتصار الحاسم ، قلّبنا النظر ، فراعنا

أن بعض انتصارنا هذا كان غلواً وعدواناً ، وأن الزمام يوشك أن يُفْلِتَ من أيدينا ، وأن فى طيات هذا الانتصار الحضرىّ إلغاءً لشخصيتنا ، وإدماجا لنا فى غمار غيرنا ، حيث لا تبقى لنا سمات تميزنا ، ولا تقاليد تَدعَم استقلالنا الشخصى . ومن ثم جعلنا نفكر : ما الذى يجب علينا أن نفعله لكى نحتفظ بمقوماتنا الذاتية ، ونحرص على أن تكون لنا شخصيةٌ مستقلة عما سواها تحمل طابَعنا الأصيل . وقد بعثنا ذلك على أن نرتد ببصرنا إلى الخلف ، لنرى ماذا تركنا وراءنا مما كان حريا أن يَدْعَمَ شخصيتنا ، ويحفظ طابعنا . فالحق أننا تركنا كثيراً من تقاليدنا الصالحة التى لم يكن لها يدٌ فيما عانيناه من تأخر وتدهور .

فلتكن دعوتنا الآن إلى استرجاع بعض التقاليد التى تُعَدُّ « مناعةً » تحمى شخصيتنا أن تذوب فى غيرها من شخصيات الأمم . ولست أريد أن أتناول هذا الموضوعَ بالبحث العلمى الدقيق ، فأسرد كبريات العناصر التى تمثل القومية ، وإنما أتحدث حديثاً يسيراً فى شئون قد تبدو

هينة ، على حـــين أن لها بعيد الأثر فى تقويم الشخصية وتمييزها .

فمن هذه الشئون : الزىّ . ولا يحسبنّ أحدٌ أنى أدعو إلى طرح الزىّ الأوربىّ بأنواعه ، فإنه أصبح زيا عالمياً يجرى عليه قانون التطور وَفق ملابسات الحياة . ولكننى أدعو إلىأن يستمسك المرء ببعض ضروب زيّه الشرقى فى حياته الخاصة ، وبيئته المنزلية ، إحياء للشخصية القومية ، وتذكاراً للماضى بتقاليده وصوره . وأرى أنه لا بد أن تحتوى خزانة الملابس مثلا عباءةً شرقية ، وكوفيـــة حجازية ، و « بلغة » مغربية ... فإذا أوَى المرء إلى بيته ، وخلع ثيابه العملية من سترة و « بنطلون » ارتدى عباءته ، وانتعل « بلغته » وانتبذ مكاناً من الحجرة عليها حشايا العصر السالف ، ولفظ « البايب » جانباً ، واســـتدعى « النارجيلة » المزركشة ، وأطلق لنفسه العنان ، يسبح فى أحلام الماضى ، حيث تشجيه قرقرة « النارجيلة » بأناشيد الجدود . . . وأنا زعيم بأن هذه الجلسة التى يقضيها المرء منا فى هذا الركن

الشرق ، جديرة أن تهبه قوة روحية جديدة تجعله وثيق الصلة بطابعه القومى . وتكسبه مناعة ضد غارات المدنية الحديثة التى قد تؤدى إلى محو الشخصية المستقلة والانحلال فى التيار الأوربى . . . ولعلى لا أغلو إذا دعوت إلى أن نقيم فى إحدى زوايا الدار معبداً من الطراز الشرقى ، نجمّله بالطُّرف التليدة ، لنفزع اليه كلما أحسسنا زحمة المدنية الغاشمة . فكثيراً ما تصيبنا نحن الشرقيين هزائم حيال جبروت هذا التمدن الغربى ، فنستشعر تزعزع الثقة بأنفسنا ، فاذا فزعنا إلى معبدنا الشرقىّ استمددنا منه اليقين والثقة . وبذلك نكون قد اتخذنا الصِّبغة الغربية فى أعمالنا ، واستبقينا لأرواحنا أحلام ماضينا الحبيب ، وطابعَ شرقنا المجيد .

وفى وسعنا ألا نخلىَ حياتنا الخارجية من مثل هذه الأركان التذكارية فى حياتنا المنزلية . من ذلك الإبقاء على بعض الأسواق العتيقة بكل ما تتضمنه من مظاهر اجتماعية ، فيجد المرء فى السوق السلعة الشرقية الأصلية ، والمشرب الذى يمثل الطابع القديم بأوانيه ومقاعده ، والملهى الذى

يقوم على ربابة « الشاعر » وستارة « خيال الظل » ... وما شابه ذلك ...

فإن ساعة يقضيها المرء فى هـذه البيئة تحمله على أجنحتها إلى آفاق حافلة بذكريات الأمس الشائق . وفى هذا ما يوثق العُـرَا بين حاضرنا القريب وماضينا البعيد . فلا ننسى ـ على أية الحالات ـ أننا شرقيون ، وأن لنـا شخصية لها مقوماتها ولها مظاهرها ، وأن الشرق يجب أن يبقى قبل كل شىء شرقا ، وأن هذه الشرقية يجب أن تـكون لنا جميعا موضع الزهو والافتخار .

السّعادة لمن يشقى

صديقي عزوز :

كان لكلمتك الطريفة التي أسمعتنا إياها في اجتماعنا أمس وقع شديد في نفسي . وكيف لا وحديثك في « السعادة » وسبيل الوصول اليها ؟ !... كنت منطقياً تبسط المقدمات وتتدرج منها إلى النتائج .

وانفض حفلنا فمضيت إلى بيتي راجلا ، أفكر في السعادة التي أثرت حديثها . فما كدت أبلغ عتبة الباب حتى شبت في نفسي الرغبة في مراسلتك : أشكر لك وأساجلك .

لقد اتخذت أسلوب « المعلم المجدّد » في شرح موضوعك فلم تتحدث حديث المحاضر أو الخطيب يرسل القول دفعة واحدة ، بل أشركتنا في البحث ، ومهدت لنا أن نتعاون جميعا على تفهّم الموضوع ووضع أسسه . فشرعت تُلْقي على كل منا سؤالا أجبنا عنه في إخلاص وصدق . وبدأت بجاري الشاحب الوجه الغائر العينين تقول له :

من هو الرجل السعيد ؟ فأجابك على البداهة : هو الرجل الصحيح الجسم الذى لا يشكو أية علة . . . والتفتّ إلى صديق فى طرَفِ المجلس له نظرات تائهة حالمة ، فألقيت عليه السؤال نفسه ، فرفع اليك بصره صامتاً ، ثم قال فى لوعة : هو الموفق فى حبه ! . . . وسألتَ ثالثاً فأجابك وهو يدخل يدَه فى جيب صداره يَعُدّ فلول نقوده : الرجل السعيد هو صاحب الجيب المفعم ! . . . ووقع نظرك على شيخ مهموم ، مداعباً مسبحته ، فقلت له : وأنت يا صديق الصوفى ، من هو السعيد فيما ترى ؟ فرفع رأسه فى ابتهال وضراعة وقال : هو الذى تسنّى له شرفُ الاتصال بالملأ الأعلى . . .

وتناولت بعد ذلك جرعة من قدح الماء أمامك لا لظمأ ، استبدّ بك ، بل جريا على تقاليد الخطباء المفوّهين ! . . . وعدت تسرّح بصرك فينا وأنت تَفْرُكُ يديك وتقول : لقد رأيتم أيها الإخوان أن نظرة كل واحد منكم فى السعادة تختلف عن بقية النظرات . إذن فالسعادة نسبية فى هذه الدنيا يصورها مزاج الإنسان الشخصى ومقتضيات حاله .

وعلى ذلك لا يمكننا أن نَعُدَّ أية إجابة من تلك الإجابات تعريفاً عاما للسعادة ثابتَ المعالم ينطبق على جميع الحالات. ولكننا نستطيع أن نلمح فى مجموع هذه الإجابات عناصر التعريف الصحيح. فلكل منكم مشتهيات وآمال، وتحقيق هذه الآمالِ والمشتهيات يهيء لكل منكم حالة اطمئنان ورضا. فهذه «الحالة» التى يصل إليها الإنسان لون من السعادة. فإذا شئنا أن نعرّف السعادة قلنا على الفور: إنها حصول النفس على حالة سابغة من الرضا والاطمئنان.

ومددتَ يدك إلى قدح الماء فجرعت منه جُرعة أخرى وقلت على الأثر: ولكن هل تظنون أيها الإخوان أن هذه الحالة السابغة من الرضا والاطمئنان النفسى تظل دائماً على نمط واحد؟ ولم تنتظرْ جوابَنا عن سؤالك بل تابعت حديثك: لا يكاد العليل يبلغ أمنيته فى الصحة، والمحب يبلغ أملَه فى الحب، والخالى الوفاضَ ينال ما يتخم به جيبه من مال موفور... حتى تنشأ وشيكا فى نفسه آمال أخرى يتعلق بأهدابها ويطمع فى تحقيقها... وهكذا يظل يجرى

وراء السعادة طول حياته ، إذا أدرك منها غاية فاتته فيها غايات جسام ، إذ النفس الإنسانية لا يشبعها فى الدنيا شىء ؛ فمطامعها دائماً فى تجدد . وإذن فالسعادة المطلقة لا يمكن تحقيقها فى هذا العالم السيّار .

وصمتَّ يا صديقى بعد ذلك صمتة مديدة ثم قلت : ولكننى أرى مع ذلك أن السعادة المطلقة ليست حُلماً ولا سراباً ، بل هى من الأمور التى قد نوفق اليها إذا اصطنعنا أسلوباً خاصاً فى تربيتنا النفسية . . . وصمتّ أيضاً فاشرأبت إليك الأعناق وأرهفت الآذان ، فقد ظننا أنك عثرت على كنز الحياة الدفين . واستأنفتَ الكلام مبتسما وقلتَ : لماذا لا يوحى كل إنسان إلى نفسه أنه متمتع بهذه الحالة السابغة من الرضا والاطمئنان ؟

فصاح أحدنا قائلا : فى قولك غموض فأفصح ! فرميت هذا الصائح الغبىّ بابتسامة مشفقة وقلت : ألا يسعنا أيها الإخوان أن ننشىء فى الإنسان « غريزة السعادة » ؟ أى أن نربيه منذ ولادته بل قبل ولادته على أنه سعيد ، وأن حالته

مرضية ، وأن ليس ثمة باعثٌ على شكوى . فاندفع المعترض نفسُه يقول : كيف أقنع نفسى أنى شجاع على حين أنى جبان ؟ وكيف أرى جيبى ممتلئاً وهو خال ؟ فأجلسته برفق وأنت تربّتُ كَتِفَه وقلت غير معنىّ باعتراضه : إنَّ فى الإنسان أيها الاخوان قوةً نفسية هى كنز كمين لم نستغلَّه حتى اليوم إلا بمقدار ضئيل . وهذا علم النفس وما ماثله من العلوم الأخرى التى على شاكلته تحاول أن تصلَ إلى مكنونات هذه القُوى المغلقة الخفية وتكشف عنها ، لتنتفع بها الإنسانية أكبر انتفاع . إن هذا القدر الضئيل الذى فى مُكْنتنا استغلاله لصالحنا هو على تفاهته للبشرية كبير النفع جزيل الخير ، فقد أوضح لنا العلم أنه من الميسور التأثير فى النفس بطريقة خاصة ـ هى ضرب من التنويم المغناطيسى ـ تحدث فى هذه النفس تغييراً جوهرياً .

فنهض أحدنا معترضاً يقول :

لا أدرى ما الذى أدخل التنويم المغناطيسى فى موضوع لا يصله به سبب ؟ فقلت معقّباً : ستجد أيها الرفيقُ تلك

الصلة الوثقى بين السعادة والعلوم النفسية . ولنأخذ مثلاً لقولنا : جرب حين استيقاظك من النوم صبحاً أن تقصد إلى النافذة وتفتح مصراعيها وتنظر إلى السماء نظرة غبطة ومرح قائلا : ما أسعدنى اليوم ! إن العالم كله يبتسم لى . .

فعارضك الرجل قائلا : هبنى كئيباً يائساً فكيف أنظر إلى السماء هـذه النظرة المستهامة وألاطفها بهذه المناجاة الرقيقة ؟ فقلت له : أوهم شعورك بأنك سعيد . ردد لنفسك أنك سعيد وأنك مطمئن إلى حالك . كرر ذلك أياماً فإنك لا تلبث أن ترى الدنيا أمامك بهيجة نيّرة . وإن نابتك - لا قدّر الله - فى يومك كارثة فعُد إلى نفسك تحدثها : كيف لى وأنا رجل عاقل رشيد قوىّ العزم أن أدع هذه الكارثة تقهرنى ! لا عشتُ إن لم أقهرها . . . حدّث نفسك دائماً هذا الحديث وكرر على مسمعك أبداً أنك راض عن حالك مطمئنّ إلى عيشك . . .

والتفت إلينا وقلت : هذا ما أعنيه بالتربية النفسية للحصول على السعادة . بهذه التربية يمكننا أن ننشىء فينا « غريزة

للسعادة » . . . وليس الأمر مقصوراً على الكبار منا ، بل يجب أن نوجه عنايتنا إلى الطفولة فنُعنى بتربية النشء هذه التربية النفسية السعيدة منذ الولادة بل قبلها . لماذا لا توحى الأم الحامل إلى طفلها وهو مابرح جنيناً فى أحشائها أنه سعيد ، فإذا ما شهد عالم النور وبدأت إحساساته تنمو وتتجاوب هى وبيئته طفقت الأم تفطنه بشتى الوسائل إلى أنه سعيد دائماً . كذلك تظل الأم توحى إلى طفلها أنه راض عن حاله وأنه ليس فى العالم الذى يعيش فيه إلا ماهو طيب حسن . فيشب الطفل وقد اقتنع بواعيته الخفية بما لقنته أمه إياه ، وعاش راضياً عن حياته لا يشكو ولا يتذمر ، يحس دائماً تلك الحالة السابغة من الرضا والاطمئنان النفسى . فإذا كان فقيراً حسب المليم جنيهاً وصحفة الفول لوناً من الطعام فاخراً والثوب المرقع حلة قشيبة غالية . . . بهذه الوسيلة أيها الأخوان يتيسر لنا أن ننشىء للمستقبل شعباً لا يعرف للشقاء اسماً ولا يفهم للبؤس معنى ، شعباً يبتسم للدنيا وهو راض مطمئن .

ذلك ما ختمتَ به حديثك . فحييناك تحية تكريم وإعجاب فرددت تحيتنا بأحسنَ منها ، ولم تنس أن تكرع قدح الماء حتى الثُّمالة !

ليس لى إلا اعتراضٌ واحد على ما جاء فى خطبتك ، فإننى غيرُ موافقك على ما تسميه « إنشاء غريزة للسعادة فى الإنسان » . . . كنت أريد منك أن تتحدث فى السعادة شارحاً ومحللا ثم تقفَ عند هذا الحد . أما أن تتصدى للعلاج وأن تفرض دواء تريد أن تجرعَنا إياه – شيباً وشباناً وأطفالا – بحجة تغيير نفسيتنا وإحداث حالة سابغة من الرضا والاطمئنان ، حالةٍ راسخةٍ الجذور فى أعماق نفوسنا ، فهذا ما لا أرتضيه ولا يرتضيه معى العقلاء . كيف تريد أيها الصديق المجرب أن تقلبَ نظام هذا المجتمع المصطخب الثائر فتجعلَ منه مجتمعاً هادئاً لا تذمرَ فيه ولا شكوى ، أوَ ترغب أن نكون كلُّنا مستمتعين بما تسميه الحالة السابغة من الرضا والاطمئنان فتسلبَنا « نعيم الشقاء » الذى يجعل الحياة متعة وبهجة ؟ أتريد منا أن نحيا كالنعاج نأكل وننام ونحن نبتسم للسماء ابتسامة

البلاهة والخمول . . . لا اعتراضَ على شيء ولا تذمرَ من شيء ولا شكوى من شيء ولا رجاء فى شيء . . . ماذا يكون حالك لو أرغموك على أن تعيش دائماً بين الورود ؟ ! إذن لعفت طيبها وكرِهْت نضْرَتها، ثم هربت منها إلى حيث تلقَ ما هو غيرُ ذكيّ ولا طيب !

اترك لنا دنيانا كما هى ، ولا تحاولْ أن تنشىءَ فينا بربك غريزة السعادة والرضا بما هو قائم ، فتقتلَ فينا حبَّ التطلع ، والرغبة فى المنافسة ، وتحقيق المُثُل العليا .

اترك لنا دنيانا كما هى بخيرها وشرها ودعنا لنحيا فيها مسوقين بتيارها الجارف ، فنَسْعدَ مرة ونشقى مرات . فى هذا نعيم الحياة الحق !

ولا يَسُؤْكَ منى هذا القول ، فانى ما زلت الصديق المُعْجَب بك الوفىّ لودِّك ؟

نادِی الأُدباء

تحدث لفيف من حملة الأقلام ، ورجال الأدب والفن ، في إنشاء ناد للأدباء ، يكون ملتقى يتطارحون فيه الأحاديث ، ويتناقلون الأفكار ، ويتعارفون ويتوادون . . . وهم يرون أنه قد أصبح لكل طائفة منتدى يضم شتاتهم ، ويجمع بينهم ؛ فخليق أن يُصبحَ للأدباء منتدًى على هذا الغرار . . .

وإنى مع تقديرى لمنتديات الطوائف ، واعترافى بما توفره لأصحابها من خير ، لا أتوقع أن يعود « نادى الأدباء » بالفائدة التى يرجوها أولئك الذين أزمعوا إنشاءه . فالأديب فى الواقع ليس فى حاجة إلى ما يحصره فى بيئة أدبية لها ذلك الطابع الخاص . فإنه بحمد الله يحيا دائماً فى مملكته الفكرية أينما حل وحيثما رحل . ولطالما شكا إلى نفسه طغيان هذا السلطان على حياته فى مختلف مناحيها . فهو فى الطريق إذا أخذ يسير ، وعلى المائدة إذا طفِق يَطْعَم ، وفى مضطربَ عمله إذا جعل يؤدى ما عليه : تلاحقه أشباح الخواطر ، وتتنازعه

أطياف الأفكار ، فتغلبه على أمره ، وتفسد عليه ما بين يديه ، وتشلُّ نظام حياته . إن حل في بيته ألفى مكتبه ينتظر أوبته ، والأقلام ترنو إليه مستعطفة ، والأوراق تتسابق نحوه متلاطفة ، والكتب تُطِلُّ من رفوفها مثرثرة . وإن خرج لبعض شأنه تصيدته المكتبات هنا وهنالك تناديه وتناجيه . وإن طلب الراحة في مشرب ، لم يلبث أن يجد نفسه قد التف في حلقة من الرفاق يتعالى فيها طنينُ الجدلِ والنقاش . حتى صار الأديب يضيق بأدبه وفنه ، ويلتمس الانطلاق في رحاب فسيحة تُنْجيه مما يثقل عليه من أعباء الفكر وشواغل الخيال . وقد يبلغ به الضيق أن يمقتَ الأدب والفن ، ويعتزمَ التوبة والخلاص بلا رجعة ولا نكوص . ولا غرو في ذلك فالإنسان على فرط ميله لهوايته ، قد يعتريه التبرم بها فيضج ويسخط ، بيد أنه لا يملكُ الفكاك مهما يكن من أمر ، كما يتعلق المحب بخليلته ، فيمنحها نوازع قلبه من رضا وغضب ؛ ووفاق وخصام ، ولكنه يظل دائماً واقعاً في أسرها

لا يستطيع الانفلات .

الأديب فى غنى عن ذلك المنتدى الفكرى الذى يدنيه من دنيا الأدب ويضمه إلى أخدانه الأدباء . . . فهو مفتقر إلى أن يتنفس فى جوّ آخرَ ينأى به عن تلك الدنيا وعن سكانها !

إن الأدب فى الحق حرقة تنخر فى الأعصاب وتسرع بإتلافها ، وتملأ الرءوس كبداً وإعياء ، فما أشدّ افتقارَ الأديب إلى أن يرفه عن نفسه بالتافه من الأحاديث والشواغل والمعابثات . . .

الأديب يقضى دهره فى ظلمة الصمت ، فما أحوجه إلى نور باهر يخطف البصر : إنه يقطع الساعاتِ راكداً فى وَحشة العزلة ، فما أحقَّه بأن يدْلفَ إلى عالم الضجة والضوضاء : إنه غارق فى معمعة الجد ، فما أشوقَه إلى شىء من الهذر .

لقد عاف الأديب طيب الأزاهير ، وسئمتْ عيناه رفيفَ الأطياف ، ومل سمعه خريرَ الجداول وحفيف

ينغصون . لقد برم بتلك الأمثلة العليا من الأحلام الطاهرة ،
فهو يريد أن يهبط وقتاً إلى أتون الحياة يصطلى لهبها .

إذا صدقت الرغبة فى خدمة الأديب ، فلننشىء له نادياً
يجد فيه متنفساً من ضيقه ، نحشد فى أبهائه الحواة والمهرجين
واللعباء ، بدلا من الكتب والصحف والرصفاء . . . نادياً
لا يمت للأدب بأية صلة ، نعلق على جدرانه الألواح مكتوباً
فيها بالخط الجلى : « الكلام فى الأدب ممنوع » . . . نادياً يجد
فيه الأديب حوضاً للسباحة يعوم فيه ، وملعباً لكرة السلة
يتقاذفها هو ورفاقه ، ومائدة للبنج بونج يتواثب حواليها
يلهو يلعب . . .

إذا أنشأنا للأديب مثل هذا المنتدى ، صنعنا معه جميلا ،
وكسبنا فيه أجراً وثوابا . . . !



دنيا المغامرات

يحلو لكل امرئ في حديث السمر ، أن يسأل جليسه : ما هي أعظم مغامرة قام بها في حياته ؟ وكذلك يحلو لمن أُتيحت له في الحياة مغامراتٌ ذاتُ شأن أن يُفيضَ في الحديث عن أكبرها خطراً . ولقد أردت أن أقحم نفسي بين هؤلاء المتحدثين ، فأصف مغامرة كانت جليلة الأثر في مراحل أيامي . وتحقيقاً لما أردت ، بدأت أفكر ، وجعلت أعرضُ تاريخ حياتي ، وأتصفح ذكرياتي . فاسترعتْ انتباهي على الفور مغامرةٌ عظيمة هي كبرى المغامرات ، أعني بها : الوجودَ في الحياة !

فالمرء يخرج إلى عالم النور والضجة ، على غير مشيئة منه . فيُلفي نفسه ضعيفاً أعزل ، ناقص العقل والحُنكة ، فاقد الإدراك والفطنة ، في دنيا واسعة صاخبة تدوس الضعفاء بلا رحمة ولا إشفاق ، وتأبى أن تُعطى قيادها لمن لا يعرف كيف يحكمها في سياسة واقتدار . وهو منذ يتنسم نسيم

الحياة ، مطالب أن يحافظ على كيانه ، وأن يهيء لنفسه عيشاً يطمئن إليه . فكيف لا نعدُّ ذلك مغامرة عظيمة دونها أيّةُ مغامرة ؟ !

ولكن لنتركْ هذه المغامرةَ الكبرى جانباً لبداهتها ، ولنعرّجْ على المغامرات الأخرى فى الحياة . وهى التى نظنها من تافه الأمور ، على حين أن لها من الشأن ما يُحسب له أجلُ حساب . . .

دونك الفتى العاشق : ألا تكون أول كلمة يلفظها أمام عروس أحلامه مغامرةً يستعد لها استعداد القائد الحذر لخوض معركة فاصلة ؟ أو ليس على هذه الكلمة الأولى يتوقف هناؤه فى الحياة أو شقاؤه ؟

وهذه العذراء فى خدرها : ألا تَعُدّ أولَ قبلة تقتطف من وجنتها مغامرتها العظمى فى الوجود ؟ أو ليست تحوى تلك القبلة على سذاجتها عالماً من الأحلام والإحساسات التى قد تضطرب بها جوانح هذه الفتاة الغريرة ؟ !

ولو أردنا أن نتوسعَ ، فنخرجَ من عالم الخيال الرفيع

إلى الواقع المبتذل ، لوجدنا مثلا ذلك البخيل الجائع ، يقف أمام البائع يساومه في سلعة من السلع ، فلم لا تُعَدّ هذه المساومة مغامرة لهذا البخيل يترتب عليها عناؤه أو راحته ؟ أو ليست تُسْلِمه إلى هواجسَ شتى وعواطفَ مضطرمة ؟ أو ليس ذلك مغامرة تتضاءل دونها المغامرات ؟ !

فلا يذهبن بك الظن إلى أن المغامرات لا تكون إلا أعمالا خارقة للعادة ، كمغامرات السندباد البحْرِيّ التي جاء فيها بالعجب العجاب : يتعلق بقدم الرخّ ، ويرتاد كهوف الثعابين ، ويكتشف جزيرة العمالقة . فإن المغامرات لا تقاس بضخامتها وهول منظرها ، ولكنها تقاس حقاً بما يكون لها من نتيجة حاسمة وأثر جليل . فالواقع أن صفحات الحياة المألوفة للانسان ليست إلا سلسلةً من المغامرات يكمن فيها الخطر ، فقد ينتج من كلمة ينبِسُ بها المرء ، أو إشارة تصدر عنه ، أو نظرةٍ تبدو منه ، أو خُطوةٍ يخطوها في سيره ، أو فكرة تجول في خاطره ، مغامرةٌ يكون لها في حياته أعظمُ شأن . بيد أن الإنسان يمارس مثل هذه المغامرات

دون تهيب أو إحجام ، بل دون عناية أو اهتمام ... !

ولعل أسوأ ماتختتم به المغامرات فى نظر الأحياء ، هى مغامرةُ الموت ، غير أنها فى الواقع أفضلها وأسماها . فما الموت إلا خاتمة المطاف بعد سياحة شاقة مضنية ، قصرت أو طالت ؛ ففيه الراحة كما نتمثلها ... ومغامرة الموت فى الحق بدء لسياحة جديدة مفعمة بالأسرار والألغاز فى عالم غريب مجهول يشتاق الرائدُ دخوله وكشفَ مكنوناته . ولما كان الإنسان قد خاض مغامرة الحياة ، وجب عليه أن يتقدم لخوض مغامرة الموت بخطا متزنة وقلب مطمئن وثغر باسم ؛ ولِمَ لا يكون كذلك ، وهو مقبل على رحلة شائقة تتضاءل بجانبها أروعُ الرحلات ؟!

هذا ولو صحا الإنسان من غروره قليلا ، وفكرّ مليّا فى هذا العالم الواسع الذى يحيط به ، لعرف أنه مهما يأت الإنسان من مغامرات يظنها أكبر المغامرات وأخطرَها ، فإننا إذا وازنّا بينهما وبين مغامرات هذا الكون العظيم لغدَت تلك المغامراتُ الإنسانية تافهة لا قيمة لها . فهذه الأرض التى كان يعتقد الأقدمون أنها محور الحياة لم تعد الآن فيما نوقن

إلا نقطة صغيرة ضائعة فى هذا الملكوت الرحيب . فهناك ما لا يستقصيه العدّ من الأرَضين والشموس والأقمار وما إليها . فاذا عددنا وجودنا الإنسانىّ مغامرة نسميها المغامرة الكبرى ، فماذا نسمى هذه المغامرة المطلقة التى تقوم بها هذه الأفلاكُ فى أجواز الفضاء الذى لا يُعرف له مبدأ ولا يُدرك له منتهى ؟ !

ألا يجمُل بنا أن نطوىَ هذه الصفحة ونمسكَ عن حديث المغامرات ، لكى نتفلسفَ قليلا فى جهالتنا الطيّبة .

فلنضحكْ ملءَ أشداقنا ، ولنُغمضْ أعيننا عن هذا ، ولنطلقْ أنفسنا يغمرنا الشباب : شباب الغفلة المريح !

بعد الموت

ماذا أريد أن يذكرني الناس به ؟

أذكر أنى قرأتُ لأحد أعلام الأدب الروسى قصّة
سرِىٍّ مريض أعضل داؤه ، وعزّ شفاؤه . وقد استبد به
الضيق والضجر فتحطمتْ أعصابُه وساء خُلقُه . وكان لهذا
السرِىّ خادم يُعنى بأمره ويقوم على تمريضه . ولكنه على
فرط إخلاصه واهتمامه لايلقى من سيده إلا العسفَ والعنت .
فعيل صبرُه ، واعتزم الرحيل . ولما كاشف سيده بما بنى
عليه عزمَه حاول أن يَثْنِيَه عن رأيه ويستبقيَه فى
خدمته ، وأغراه بزيادة مكافأته ، ووعده بإحسان معاملته . فأبَى
الخادم إلا إصراراً على المضى ؛ فلم يسعْ السيدَ إلا أن يحتال
له . فقال : لئن لبِثتَ معى لأقيمن لك إذا حانت منيتك
جِنازةً لم يشهدْ مثلها أحد ، جِنازة تفوق فى فخامتها كبرى
جنائز العظماء . ستكون حقاً حديث الناس حِقبةً من الدهر .
فخُدع الخادم بهذه الحيلة ، واستهواه هذا الإغراء ؛ فأضرب
عن الرحيل ؛ وأقبل على سيده يعاودُ تمريضه والقيام على
شأنه ، ناشطاً غيرَ وان .

تخيل هذا الخادم الساذج ما ستكون عليه جنازته من الجلال والفخامة كما وصفها له سيده ؛ فالموسيق الحزينة تتقدم نعشه في روعة ، والناسُ حشدٌ خلف النعش يطأطئون الرءوس من رهبة وخشوع . ثم تخيل الموائد تزخرُ بألوان الطعام والشراب وحولها الجموع الوافدة يطعمون ويستمطرون على جدث الفقيد شآبيب الرحمات . ثم تمثل له حديثُ الأندية في وصف جنازته ومأتمه ... توهم المسكين كلَّ هذا فاستعذب أخيلته . ولم يلبث أن استهان بالصعاب والمتاعب في سبيله . .

والحق أن في كلٍّ منا جانباً من شخصيّة هذا الخادم الساذج . بل فينا الكثير من جوانب هذه الشخصية ، فمَن الذى لا يتمنى أن يذكره الناس بعد انقضاء عمره بالخير . إن شهوة الخلود - أعنى الرغبة فى أن نستمر أحياءً ولو على سبيل المجاز - تحتل المكان الأول فى نفوسنا . ونحن نعمل لها دائماً بوعى منا أو بغير وعى . وما هى إلا مظهر من مظاهر تنازع البقاء . فنحن إنما نسعى فى كل أعمالنا - مدفوعين

بقوة لا تُغلب - إلى تحقيق هذه الأمنية الغالية . فهؤلاء العظماء من غزاة فاتحين ، وعلماء مخترعين ، ورواد كشافين ، وطيارين مجازفين ، لم يُقدموا على ما أقدموا عليه إلا طلباً لطيب الذكر وجرياً وراء الخلود .

على أن الناسك الذى يحبس نفسه فى معزل لا تراه العيون كأنه جثة فى قبر مهجور ، لا ينسى أن التنسك مظهر من تخليد الذكر ولكنه مظهر سلبىّ . فعما قليل يذيع نبأ عكوفه على التعبد وفراغه للتبتل وتطهير نفسه من الآثام والخطايا . وعما قريب يُصبح كهفه الذى شهد نُسكه وتعبده ضريحاً مهيباً تؤمه الخلائق من كل فج ، تلتمس البركة وشفاء النفس . وهل يجهل ذلك « الناسك الصالح » أن هذا مصيره بعد أن يفارق حياته الدنيا ؟!

وما رأيك فى هذا الرجل الطيب الذى يوصى بألا يقام له مأتم ، وألا يسيرَ فى جنازته أحد ، وأن يدفن فى غير ما جلبة ولا ضوضاء ؟ ألا يعلم صاحب هذه الوصية أنه يحفز الناس إلى التحدث طويلا برفعة نفسه وسموّ روحه وإبائه

للعظمة الجوفاء . وفى حديث الناس لذكره تخليد ، ولأثره تمجيد .

كلنا يسعى فى هذه السبيل سواء منا من أقرّ ومن غالط ومن أنكر . بيد أن لكل منا وسيلته فى تحقيق مبتغاه ـ وسيلته التى تتفق مع عقليته وملابسات حياته .

والرأى عندى أنه كلما كان المرءُ مخفقاً فى كسب مغانم الحياة ومُتَعها كان أشدَّ حرصاً وأقوى رغبةً فى تخليد اسمه بعد انطفاء مصباحه ، تعويضاً له مما فاته وتعزية لنفسه عما فقده . ولعل السرَّ فى أن الأدباء من أكثر الناس تقديراً لفكرة الخلود وأحرصهم على أن ينالوا منه النصيب الأوفر : هو أن الأدب بضاعةٌ مُزْجاة ، وحرفة كاسدة ، فلا غروَ أن يتعلل الأديب بتلك الشهرة التى تنتظره بعد ارتحاله من عالم الأحياء ، وأن يجد فى خمرها ما يلهيه عما يكابد من عنَت وبأساء .

ولو سألت كائناً كان : أىُّ الرجلين أبرّ بنفسه : الأديبُ أم المقامر مثلاً ، لما تردد فى التعالى بالأديب وتزكية عمله والانتقاص من قدر المقامر والزراية عليه . ولكن الحق

أن الأدب أكثر المشاغل جناية على ذويها، وأشدّها إضراراً بهواتها . ولوددت في قرارة نفسي أن أكون ذلك المقامر ، أشترى بما أخسره من مال تلك النشوة العجيبة التي لا يدركها إلا الراسخون في فنّ الرّهان . إن المراهن أو المقامر يفقد من ماله كثيراً أو قليلا ولكنه يشترى به متعـــة الروح وانتباه الحسّ ، فصفقته مهما يكن من أمرها صفقة رابحة . حسبه هذا « الاهتياج » الذى يلهبه نشاطاً ويقظة . هذا « الاهتياج » الذى يصفع الغدد النائمة ، فلا تملك إلا أن تهب من سباتها لتؤدى عملها في حيوية متكتملة . هذا « الاهتياج » الذى ينقى الدم من النفايات ويدفع به قوياً فى العروق ، فيقدم للجسم غذاءه الصحيح . أراهن أن ليس بين المقامرين مريض واحد . أما فى عالم الأدباء ، فإنك واجد صرعى أمراض المعدة والأمعاء والكبد والصدر والقلب لا يحصيهم عدد .

وإن أردت دليلا جديداً على أن الأديب يمثل الهزيمة فى معركة الحياة العاملة لوجدت هذا الدليل ناصعاً وضّاحاً

فيما يصطنعه من خيال يَخلُق به دنيا عامرة ليصول فيها ويجول وَفق هواه . لقد أحب دنيا الخيال لأنه وجد فيها ما يلائم ضعفه ، فراح يشيد فيها المدن الكبيرة ويُسكنها الآدميين من كل صنف ولون ، ويحركهم بضروب العواطف والنزعات من حبٍّ وكره ، ومصافاة وخديعة ، وبناء وهدم .. ثم يقضي وقته الأطول لاهياً على الشرفات يتفرج ، ثم ينثني إلى القارىء صائحاً به : تلك هي الحياة فانظر فيها واعتبر !

فالأدبُ كالعَلَقَة التي يضعها المريض على موقع علته لتخفف عنه ما به . فما تزال لاصقة بجلده تعُبُّ من دمه وتنفثُ فيه سمَّها الزُّعاف . ولما كان الأديب على ذلك يُعطي ويُعطي ولا ينال شيئاً فإنه يتطلع إلى تعويض — من طيب الأحدوثة — ضخمٍ جزيل ، ولو بعد عمر طويل ! . .

فاذا سألتُ نفسي : ماذا أريدُ بعد الموت أن يذكُرَني الناس به ؟ لم أجد من جوابٍ صريح أركَن إليه ، إلا أني أرجو أنْ يعوضني الله عما فقدتُ ، ولا أنْشُد غير ذلك

من تعويض . فليقل الناس فىّ ما يشاءون من خير أو شر .
وحسبىَ الآن أن أقضى ما بقىَ من أيامى مستسلماً للقدر ،
نافضاً يدى من كل شىء ، أستوفى أخرياتِ أنفاسى فى جو
طليق . . . !

شقيقي اسماعيل

صورة وصفية

لما سئلتُ أن أكتب فى شأن شقيق « إسماعيل » ، ألفيتُنى فى حيرة مضنية . هل ألبى دعوة السائل ، فأقدم صورة شخص من أحب الناس عندى ، وأقربهم إلىّ ، صورة قد يجد فيها القارئ لوناً من التحيز يثير استخفافه ؟ . . . هل أتنحى لغيرى ، يتحدث فى شأن مهما يحاول الإجادة فيه ، فهو ناقص مبتور ؟ . . . وهل يستطيع الغريب أن يبلغ الإخلاصُ فى قوله ، والصدقُ فى نظره ، مبلغ الأخ الشقيق ؟

إذاً لا بد مما ليس منه بدّ ، فلأتذرع بالشجاعة ، والله نصيرى !

إذا شئنا أن نكتنه شخصية « الأمين الأول » تعيّن أن نعود القهقرى عشرات الأعوام ، فنصاحبه وقتاً وهو صبىّ يافع ، موزّع الوقت بين المنزل والمدرسة : فى هذه السن المبكرة ، بدأت شخصية « إسماعيل » تتوضّح ، وتخط لها طريقاً معيّناً فى الحياة . وكلما تعاقبت السنون ، تجلت هذه

الشخصية مكتملة ثابتة المعالم . . . كان يعتز دائماً بمنزلته فى الأسرة ، منزلة الابن البكر . وأراد بدافع ـ غير واع ـ أن يثبت لنا جدارته بهذه المكانة ، فاتخذ له بيننا شخصية « الزعيم ».

وكنا إخوة ثلاثة ، أولنا « إسماعيل » وثانينا « محمد » وثالثنا : كاتب هذه السطور . ومع أن البون لم يكن شاسعاً بين أعمارنا ، استطاع « إسماعيل » أن يتزعم فينا ، وقبلنا نحن هذه الزعامة راضيين ، إذ لمحنا فيه مطلع رجولة مبكرة ، منطوية على رزانة وتعقّل ، بعيدة عن طيش الطفولة وعبث الصبا . فإن شاركنا فى اللعب ، وجدناه على الفور يتخذ فينا مكان الرياسة : وحين ألفنا فرقتنا التمثيلية البيتية ، اضطلع هو بأدوار الزعماء من قادة وملوك . فلما اشتد عودنا ، وخطونا فى رحاب الشباب خطانا الأولى ، أحجم « إسماعيل » عن مشاركتنا فى لعب الكرة ، وسباق العَدْو ، وما إلى ذلك من صنوف الملاعب ، كذلك أعفى نفسه من التحرير فى صحيفتنا المنزلية ، وانصرف مقبلا على الدار ، يصرّف شئونها مقتـــدراً لا يعيه شيء . وإذ يشهدنا فى لَبُوس

الرياضة ، خارجَين إلى الملعب ، يفتر ثغره عن ابتسامة الأب العطوف !

وتلاحقت بنا الأعوام ، فإذا « إسماعيل » يشرف على مزارعنا بالريف ، ويديرها فى نشاط ودراية أسبغت على الوالد فى أخريات أيامه طمأنينة وراحة بال .

وكان فى كل أطواره تلك ، يمثل النظام والمثابرة وصون التقاليد فى أدق مظاهرها ؛ فلا غرو إن جلس اليوم فى منصب يتطلب ممن يشغله تلك الخصال التى لازمت « إسماعيل » منذ الصبا ، فصارت فيه الآن طبعاً أصيلا لا يملك منه الفكاك . . .

هذه صورة موجزة لـ « إسماعيل » حتى بلوغه منصبه الحاضر فى القصر الملكىّ . وهى خليقة أن تثبت لنا أن الطفل فى سنيه الأولى لم يكن إلا صورة مصغرة من رجل المستقبل تجمعت فيها أمياله وخلاله .

ولما كنت الآن فى معرض التحليل لشخصية « إسماعيل » فلزام علىّ أن أستكمل صورته فى مختلف نواحيها . وبتعبير

آخر : يجب أن أتناول بالحديث جانباً مجهولا من شخصيته .
فلقد فرضت عليه مقتضيات الحياة وملابساتها — من عهد
الحداثة ، حتى أصبح الأمين الأول بالنيابة — واجبات
الإدارىّ الموهوب الراعى للتقاليد ، فحدت من حريته ،
وضيقت من آفاقه ، فمنعته أن يستمتع طفلا بكل مافى الطفولة
من مراح وصخب ، ودفعته وهو فى زهوة الشباب المفعم
بالغوايات أن يسلك طريق العمل المتواصل ، ويقصر جهده
فى الحصول على الشهادات العالية ، متطلعاً أبداً إلى مرتبة
توافى نزعاته وأمانيه . أجل ، إن مقتضيات الحياة وملابساتها
قد صبغت حياة « إسماعيل » بلون لم يكن مشرقاً كل الإشراق ،
فخلعت عليه فى سن مبكرة وقار الشيوخ وحنكة المجربين .
وقد قابل « إسماعيل » هذا بالرضا ، وأذعن له بالطوع ،
ولكن « الطبيعة » الجبارة لم تخضع ولم يهن لها عزم ، فانطلقت
تعمل فى الخفاء لتنتقم من جدّ « إسماعيل » ووقاره ، ولتنال
من مجال الحياة مسرات تعوضها ما فقدته وما تزال تفقده ،
فظهر على الأثر فى شخصيته جانب آخر له خطره . . .

وإنى إذ أعتزم رفع الستر عن هذا الجانب ، أرانى قد أقحمت نفسى فى مأزق لا يعلم إلا الله أين منه سبيلى إلى الخلاص ؟ !

وقبل أن أفضى إليك بالسرّ الكمين ، أريد أن أصحبك أولا فى رحلة قصيرة إلى « مكتب الأمين الأول بالنيابة » فى قصر عابدين . فإذا ما اجتزت عتبة الباب ، طالعك لتوّك شخصه خلف مكتبه ، وهو آخذ بسماعات « التليفون » يُصغى إلى ما تنقله إليه من أحاديث مختلفة الألوان واللهجات ، فيجيب عليها فى وقت واحد لبقاً غير متعسّر ، وأمامه كومات من الأوراق يرمقها وترمقه فى عتاب وحذر ، وهو فى الوقت نفسه لا يفوته أن يحتفى بوفود الزوار التى لا ينقطع لها سيل ، يسأل هذا عن صحته . ويبادل ذلك حديثاً يتعلق بالجو ، ويجامل ثالثاً بجملة خاطفة ، ورابعاً بتحية تتجمع فيها أصول اللباقة والأدب الرفيع وقد تكون مشتبكاً معه فى نقاش مهم ، فترفع بصرك إليه فلا تجده ، فترسل بنظرك فيما حولك تبحث عنه ، فإذا هو فى البهو يستقبل جمعاً من

الوفود ، مستمعاً إلى خطبائه ، مجيباً كل خطيب بما يثاج صدره : ثم لا تلبث أن تراه قد عاد إلى مجلسه الأول معك يتابع نقاشه فى بشر وطلاقة . . . وهنالك فئة من الزوار يصح أن نسميها « الأطياف » وأكثرها من ذوى المقامات الممتازة ، فهى لا تكاد تبدو فى الحجرة حتى تختفى فى لمح البصر ، ولا يملك « إسماعيل » إلا أن يغدو طيفاً مثلها ، يلاحقها ويتابعها ، فلا تفطن إلى مكانه إلا بنبرات صوته . . . يقع هذا كله ، ورهط من إخوانه موظفى القصر ، واقفون أمام مكتبه ، مرتقبون مقدمه ، يحمل كل منهم إضمامة أوراق ، يبتغى عرضها عليه فى خلوة عاجلة . . .

خلف هذه التكاليف والمراسم ، يكمن الجانب الفذّ من شخصية « إسماعيل » وقد حان أن نجلوه لأعين القراء . . . هذا الجانب يمثل « إسماعيل » الساخر المتهكم ، فأما رمز هذه السخرية وهذا التهكم ، فهو ابتسامة خفيفة تعلو شفتيه ، هى فى مظهرها كسطح البحر الهادئ ، تحسبه ضحضاحا ، ولكنه فى الحق غمرٌ بعيد القاع . . . وإن « إسماعيل » ليعتز بهذه

الابتسامة اعتزازه بأغلى الأشياء ، وهى فى نظره بمثابة خط « ماجينو » أو « سيجفريد » يحشد خلفها جيوشه المنظمة . ثم يطلقها عند الحاجة لا لتقتل وتدمر ، بل لتثير روح الدعابة اللطيفة ، وتحيل ذلك الجو المتحفظ الوقور جواً رقيقاً يشمله الإيناس والبشاشة . وإنى لا أخشى شيئاً خشيتى لهذه الابتسامة ، فإن لمحتُ طيفها يتخايل على وجهه ، أيقنت أن ثمة إعصاراً من التهكم قد أخذ يتجمع فى صمت وسكون . فأُعد العدة توًّا للفرار ، وإلا كنتُ فى الفخ ضمن المصيد !

وما دام هناك تهكم ، فواجب أن تكون هناك فئة المتهكَّم عليهم . وأولئك هم الذين يسميهم رفعة حسنين باشا بـ « الضحايا » ... وإننا نحمد الله على أن « الأمين الأول » قد قصر تهكمه الصامت ، وعبثه الخفى ، على طائفة محدودة مختارة ، يستبقيها فى مجلس خاص ، ثم يطلق الفرد أو الجماعة منها ، كلما استبدت بنفسه رغبة التهكم الجامحة ، ويجعل منها مفزعا وسلوى .

وإنك لتعجب من أن هذه الطائفة المختـــارة ، دائمة

التجدد . والسرّ فى ذلك أن لـ « إسماعيل » عيوناً ومندوبين يبثهم فى مختلف المناطق ، هنا فى القاهرة ، وهناك فى الريف يتصيدون الشخصيات البارزة ، ويقدمونها له غنائم لا ينقطع لها ورْد !

ولرفعة حسنين باشا غرام بضحايا « إسماعيل » ولا يسعنا أن نخليه من تبعة وجودها ، فهو شريك « إسماعيل » فيها ، وإن كان يفضّل أن يرعاها على البعد .

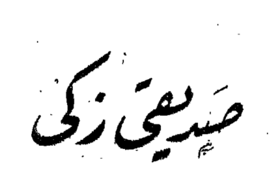
ولا يكاد « حسنين باشا » يقدم القصر ، ويقع بصره على الأمين الأول ، حتى يسأله فى لهفة عن « الضحايا » . فيأخذه « إسماعيل » بيده إلى مجتمعهم العجيب . فإذا هم مجموعة نادرة من الطوائف البشرية لو صادفتها فى متحف من متاحف التاريخ الطبيعى لم تصدق عينيك ... مجموعة تحوى شخصيات من مختلف العصور والأجناس : هذا تركى من أتراك القرون الوسطى ، يميل إلى مملوك من حكام الأقاليم فى العهد الغابر ، بينهما شيخ من معاصرى الجبرتى ، على مقربة منهم ألبانىّ من معاصرى العهد العثمانىّ ، يجالس

عالما لم يسمع بعلمه أحد ، وطبيباً لم يتجاوز اسمه عتبة حجرته ...

وإن هذه الطائفة الكريمة لتقف صفاً أمام الصديقين ، يعرضانها كأنما يعرضان « قره قول شرف » ... ثم توزع عليهم بعد ذلك أقداح القهوة ، ولفائف التبغ ، وملحقاتها ...

ولعلك لا تعرف أن نزعة التهكم الخفية القابعة خلف شخصية « إسماعيل » الظاهرة تنافسها نزعة مماثلة فى شخصية « حسنين باشا » . فإذا سمينا « إسماعيل » بموليير الصامت ، أو : « المداعب الظريف » لم نجد لحسنين باشا أليق من فولتير الهادىء ، أو : الساخر الرشيق !

تلك صورة سريعة ، أقدمها للقراء على حقيقتها ، وإنى لموقن بأن الحساب سيكون بسببها غير يسير ، على أنى فوّضت أمرى إلى الله ...


صديقي زكي

سئل صديقنا الأستاذ « زكي طليمات » في بعض الشئون الفنية ، فأجاب عنها بما ارتآه ، وكان من بين ما سئل عنه لماذا ينجح الآن في أدوار الأشرار ؟ فبعثتني إجابته على أن أعلق عليها بكلمة مجملة .

وأحسب أن من حقي أن أدخل بين السائل والمجيب وأن أقحم نفسي في هذا الموضوع ، لما بين الصديق المسئول وبيني من وشائج صداقة تجعلني قريب الصلة به ، مطلعاً على بعض دقائق حياته ، ولا سيما الجانب الفني منها .

ولعل من المستحسن أن نعرض سؤالا عاماً ، ذلك هو : هل هناك صلة بين طبيعة الفنان وبين قدرته على التعبير ، فإذا كان شريراً استطاع أن يعبر عن الشر التعبير الأقوى ، وإذا كان طيب النفس استطاع أن يمثل الطيبة فيما ينهض به من فنه ؟

الجواب عن هذا السؤال في نظري أن الفنان دائب

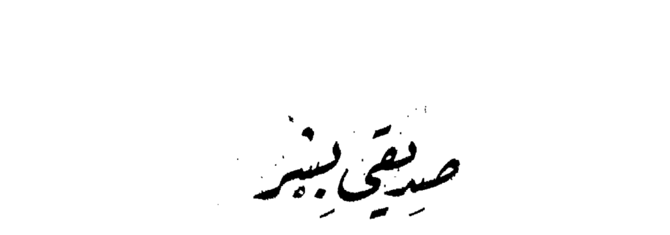
يجيد التعبير فى الناحية التى تعوزه فى طبيعته الكامنة ، فإذا كان يائس النفس غلبت عليه فى فنه رغبة المرح واللهو ، وإن كان ضحوك السن مراحا لم يعجزه أن يعبر فى فنه عن الجد وتمثيل الشعور الحزين . وقس على ذلك تشدق الجبان بالشجاعة والمتلاف بالحرص ، والعاجز ببعد الهمة . وقد وجدنا أمثلة ذلك فى الشعراء ، فهذا جرير الذى لم تستعر له أشواق إلى المرأة كان أرق الناس غزلا ، وبجانبه الفرزدق الذى عرف بأنه زير نساء لم يكن له غزل مشبوب . وكذلك نجد أمثلته بين رجال السينما المعاصرين ، فهذا ماكس ليندر الفرنسى بطل الفيلم الصامت الهزلى ، ظهر على الستارة الفضية مثال الشاب الضحوك المهذار الذى يملأ النفس بهجة بإشاراته وحركاته العابثة ، على حين أنه فى حياته الخاصة صورة واضحة للحياة السوداوية : حياة اليأس والعبوس ، حتى انتهت أيامه بحادث انتحاره . وذلك شارلى شابلن على نحو ماكس ليندر فى حياته الخاصة من العزلة والنفور من المجتمع والانطواء على النفس ، مع أنه أقدر مثل هذا عرفه العصر الحديث فى العالم الفنى .

وأكبر ظنى أن التفسير الصحيح لهذه الظاهرة هو أن أولئك الفنانين يكملون فى عملهم الفنى ما حرموه فى حياتهم الخاصة التى هيأتها لهم طبيعتهم الظاهرة . وقياساً على هذا التفسير يمكننا أن نعرف لماذا ينجح صديقنا الفنان زكى طليمات فى تمثيل أدوار الأشرار . فقد ظهر فى شيلوك المرابى فى مسرحية تاجر البندقية ، وصاحب المصنع الوغد فى فلم العامل ، وفى غيرهما من الشخصيات الشريرة ممثلا بارعاً يتقمص الشخصية التى يمثلها تقمصاً دقيقاً يدعوك إلى الإعجاب ويأسرك بمواقفه الفنية المحكمة .

وكل الذين اتصلوا اتصالا وثيقاً بفناننا الكبير لا يخفى عليهم أن طبيعته الأصيلة تنطوى على الطيبة والرفق والدماثة ، وأنه ملىء بإنسانية خيّرة يشعّ منها الوفاء والنبل وكرم المعاشرة . ويلوح لى أنه حين واجه الحياة بهذه الخصال الرفيعة صادفته ألوان من المعاكسة وسوء الجزاء حالت بينه وبين ما يهدف إليه من مثل عالية تعتلج فى قلبه ، فيرغب أن يحققها بالوسائل الشريفة التى ترسمها له أخلاقه . وسرعان

ما استبان له أن للنجاح وسائل لا تتفق دائماً مع الرفق واين الجانب ونبل الطبع ، فكان لذلك فى نفسه أثر ظل مكبوتاً . حتى وجد له متنفساً فيما يقوم به من الأدوار . فهو بتمثيله الشخصيات ذوات النزعات الشريرة ، التى استبان له أنها الناجحة فى ميادين الحيــاة - يرضى الجانب الذى لم يستطع تطبيقه فى حياته العملية ، فلم يجد إلا أن يستكمله تمثيلا فى حياته الخيالية . وبذلك انتقم فينا من المجتمع الذى أساء إليه ، ومن المثل التى وقفت حائلا بينه وبين النجاح الذى كان يمنى به نفسه فى مجتمعه .

وإذا كنا قد أعجبنا بفناننا الكبير فى هذه الأدوار ، فلا ننسى أنه اشترى هـذا الإعجاب بتضحية عظيمة ، هى إباؤه أن يكون شريراً عملياً فى حياته الاجتماعية . ونحن نحمد الله على أنه وجد على منصة المسرح وعلى الستارة الفضية متنفساً يحفظه لنا من الإخلال بمبادئه السامية وأخلاقه الحسان فى محيطه العملى الذى نتمنى له فيه مطرد التوفيق .


صديقي بشير

تلقيت يوماً دعوة من إحدى الهيئات العلمية ، ولا أدرى متى جرى ذلك على وجه التحقيق . وكانت الدعوة لسماع محاضرة لغوية لبحّاثة معروف ، سمعت به ، ولكنى لم أره بعد .

فذهبتُ ، وقد تخيلتُ لهذا المحاضر صورة تتفق مع موضوع محاضرته . . . رجلاً أشرف على الخمسين ، بشارب مهدّل ، وعينين مجهودتين ، وصوت متآكل . فما كدت أستقر فى مكانى من القاعة وأرفع بصرى إلى المحاضر ، وقد اعتلى منصة الخطابة ، وبدأ يلقى محاضرته ، حتى طالعتنى صورة أدهشتنى جد الدهشة . رأيتُنى أمام فتى كله شباب وحيوية ، بعينين تلمعان ذكاء : له وجه صبيح ، بشارب طرير مشذّب على الطريقة الفرنسية ، وقوام إغريقىّ يذكّرنا بتماثيل « براكسيتيل » !

فتشككت فى الأمر ، وحسبت أنه قد جد تغيير فى المحاضرة والمحاضر ، وانحنيت على زميل بجوارى أتبين منه

حقيقة الحال . فأكد لى أن المتكلم هو الدكتور بشر فارس نفســـه !

ورحت أستمع ، فإذا بالمحاضر يلق بحثه بصوت جميل النبرات ، فى لهجة فصيحة ، تتوضح فيها دقة الأداء ، وحسن اختيار لمواقف الجمل ، وحرص على سلامة مخارج الحروف . كل ذلك فى اتساق وانسجام كاتساق النغمات وانسجامها فى اللحن الفنى البارع !

واتسعت مسالك البحث وتشعبت ، بيد أن المحاضر كان قابضاً على زمام موضوعه قبضة جبار ، يديره فى حنكة ، إدارة الربان الماهر لباخرته وسط العباب الصاخب . . . حتى انتهى به أخيراً إلى شاطىء السلام !

منذ ذلك اليوم عرفت الدكتور بشر ، وما أسرع أن توثقت صلاتى به . . . فتجلت لى فيه شخصية أخرى غير شخصية ذلك العالم المحقق — تلك شخصية الصديق الودود المرح . فالابتسامة اللطيفة التى طالما انقلبت إلى ضحكة عابثة لاتفارق

ثغره ، والنكتة المصرية اللبقة تظل محلقة فى سماء مجلسه .
وقد يمضى فى حديثه الطريف ، فلا يكاد يروى لك أخباره
عن باريس ، ما شاهده فى دور العلم بها ، وما لقيه فى مغانى
عبثها ولهوها ، حتى ينتقل بك إلى قهوة « الفيشاوى » ومطعم
« الحلوجى » ، فيحدثك عن الشاى الأخضر ، وصحاف « الطعمية »
الفاخرة تحيط بها أصناف المشهيات . . . ومن ثمّ يختفى
أمامك العالم المجهد ، ليحل مكانه « ابن البلد » الوجيه العريق
فى المصرية ، فلا يعوزه إلا (اللاثة) يديرها على رأسه ،
فينطلق فى مسارح « سيدنا الحسين » يلوح فى يمينه بعصا الفتوّة » !

والحق أن جلسة واحدة مع الدكتور بشر تريح الأعصاب ،
وتملأ القلب من إيناس ، وتحوّل نظر المرء إلى الناحية
الرّفافة الجميلة فى الحياة . . .

صاحبْنا الدكتور بشر وقتاً ، ثم طلبناه حيناً فلم نجده
فكأنه « فصّ ملح وداب » كما يقولون . . . ثم عاد إلى
الظهور ، ولكن فى فترات متقطعة نادرة . كنا نراه اتفاقاً

فى الطريق مهرولا لا يقر له قرار ، وهو محاط بشرذمة من النجارين والحدادين والطلائين . فإذا ما استوقفناه ، فسألناه عن سبب غيبته ، أشار إلى مرافقيه ، وقال ، وهو يتأفف فى لهفة المكدود : ألا ترون أنى مشغول ؟ ! ويتابع سيره فى عجلة واهتمام ، وقد اشتبك مع صُنّاعه فى مناقشة حادّة .. فلا نشك لحظة فى أنه ودّع العلم والأدب والتحق بزمرة المقاولين !

وبينما كنا فى مجلس نذكر صديقنا بشراً بالخير ، ونأسف لتوديعه الأدب ؛ إذا به يفاجئنا بدعوة ظريفة إلى مسكنه الجديد فى « جاردن ستى » . فقمنا من ساعتنا إليه ، فوجدنا أنفسنا فى متحف فنىّ ، كل ما فيه يشف عن ذوق سليم غاية فى السموّ .

وجعل صاحب الدار يمر بنا فى مقاصير المسكن وقاعاته المنشأة على أحسن طراز ، ويقف بنا أمام تحفه واحدة بعد أخرى ، وهو يشرح لنا تاريخها وقيمتها شرح خبير . فهنا صورة طريفة محلاّة بإمضاء فنان ، وهنالك تحفة من الفن

الصينيّ الثمين يرجع تاريخ صُنعها إلى عهود غابرة ، ترى بجوارها مقعداً لطيفاً على شكل رَحْل من رحال الجمال ..

وفي ركن من أركان الغرفة يقوم ذلك الرفّ الساذج البديع يحتضن « تاييس » و « مدام بوفاري » و « أفروديت » وهن في أثوابهن الغالية الفاتنة !

ففطنا بعد لأى إلى سرّ غيبة صديقنا . وظفقنا نطوف معه ذلك « المزار » المبتكر ... حيث يعبق في جوه عطر الفن ، وتشمله روح الجمال !

طابَع الفن والجمال يسم حياة الدكتور بشر بأكملها ، يسم شخصه ومسكنه وتآليفه وكل أسباب عيشه ، فإذا ما قرأت له مقالا رأيته ألبس الفكرة العميقة والرأى الناضج ألفاظاً ينتقيها في حكمة ، وينسقها في صبر وجلد ، ثم ينضدها تنضيد العقد على صدر الحسناء !

فإذا لقيت شخصه ، ألفيت أمامك شاباً أنيقاً يحسن كيف يلائم بين لون رباط الرقبة والقميص والحُلة ، ليخرج منها صورة فنية طريفة ...

ولصديقي بشر شخصيتان : شخصية الأديب ، وشخصية العالم ، تتنازعانه على الدوام ... ولا ندري أيهما يقدر لها الفوز على الأخرى ؟ فقد أصدر في العام الماضي مسرحيته الرمزية : « مفرق الطريق » ، فتلألأت نجماً جديداً في سماء الأدب الرفيع . وظهر له منذ أيام كتابه : « مباحث عربية » فإذا هو سفر قد لانغالي إذا قلنا إنه في طليعة الآثار العلمية التي تمخض عنها العصر الحديث ، من حيث دقة البحث ، واستيعاب الموضوع ، وحسن الصياغة ، والبراعة في التنسيق والتنميق . كل ذلك على أحدث نهج علمي خطه علماء الاستشراق ؟

ونحن اليوم نتتبع خطوات بشر فارس وهو يروح ويغدو ، ينحت الصخر آناً في مفاوز العلم ، وينظم الزهر آناً في خمائل الأدب ، ونتساءل في حيرة : إلى أي مدى يستطيع الصديق أن يحتفظ بشخصيتيه المستقلتين ؟ وهل في الإمكان أن يجمع المرء بين الأدب والعلم ، ولا يستشعر في دخيلة نفسه ذلك التنافر القائم بين هذين العنصرين النفيسين

اللذين لا يهدأ لهما حال إلا إذا أخضـــع أحدهما زميله واستعبده ؟ !

* * *

وللدكتور بشر نواح خفية ، لا يعرفها إلا أصـدقاؤه الخلصاء وإنى لمذيع بعضها ، وأمرى إلى الله ! فقد يحاسبنى على إفشائها حساباً عسيراً !

إن صديق بشراً — ولنخفض أصواتنا قليلا — رجل ذوّاقة فى المآكل ، واسع الاطلاع على ألوان الطعام ، عظيم الخبرة فى كلّ ما تزدان به الموائد . وإنها لمتعة حقاً حين تسمعه يحدثك عن صحاف الأطعمة المختلفة واحدة بعد أخرى ؛ يروى لك — وعيناه تلمعان لمعان المرَق الذهبى — كيف يشترى بنفسه الزبد الطازج ، وينتقى عند الجزار أطايب اللحم ؛ وكيف يقف أمام الفرن يجهز الصنف الذى يحب ، ثم لا يلبث أن يأتى عليه ولمّا يتمّ نضجه على النار ، مقتفياً أثر المثل الصالح : خير البر عاجله !

ولصديقنا بشر جولات موفقة فى مطاعم المدينة ، فهو إذا

دخل أحدها لا يطلب القائمة ، ولا يُعنى بمكانه من المائدة :
بل يطلب أن يدلوه فوراً على المطبخ ... وثَمَّ يكشف عن
القدور يتفحصها تفحّص عارف ، ثم يشير أخيراً إلى واحدة
منها . فيحضرونها له بأكلها ... ويشمّر الدكتور عن ساعد
الجوع غير معنىّ وقتئذ بأناقته ، وينكبّ على القدّر فيأتى
— فى لحظة خاطفة — على ما تعب الطاهى فى صنعه ساعات
طويلة !

وإنى أنصح — نصيحة مجرب ! — لمن أصيب فى معدته .
ويرغب فى دواء ناجع لإصلاحها أن يأتى بالدكتور بشر عن
يمينه وزكى طليمات عن يساره ، ثم يراقبهما هنيهة وهما ،
يتناضلان فى معركة القدور كرًّا وفرًّا ... فإنه لا يعتم أن
يشعر بمعدته تتصايح فى ثورة جامحة ، وإذا به ينطلق هو
أيضاً فى صحاف الطعام يفتك بما فيها فتك مغوار !



السيد طنجات

كان بدء اتصالى بـ « على حسن سليمان » — أعنى الأستاذ طبنجات — منذ أكثر من عشرين عاما ، إذ كنت أعمل على نشر مؤلفات شقيقى المرحوم محمد تيمور . قدمه إلى صديقنا الأستاذ زكى طليمات ، ليلسخ بعض أصول الروايات فالتقينا فى منزلى ، ولا أزال أذكر تلك المقابلة الأولى ن الدقيقة ، حيث أخذنا نتبادل الحديث . وراعنى منه أول مرة ذلاقة لسانه ، وقوة تدفقه ، فما أسرع أن ملك زمام الموقف ، واندفع يتحدث فى شتى الشئون التمثيلية ، فلم نملك إلا التسليم له بالبطولة فى فن الكلام . . وانتهت هذه المقابلة دون أن نتعرض للموضوع الذى حضر من أجله ، فكانت هذه أول بادرة من خصائص الأستاذ :

وتوالت مقابلاتنا بعد ذلك ، فتوضحت لى شخصية السيد طبنجات جانباً بعد جانب . وكان أكبر ما توضح لى منها أنها شخصية ليست من الهنات الهينات ، بل أنها متشابكة

النواحي ، تستوجب الفحص والتشريح . وليس من العجيب أن أجد هذه الشخصية التي طالعتني بطرافتها وشذوذها يوماً بعد يوم ، تلهمني عملا من أعمالي الأدبية ، أقصد قصة : « أبو علي عامل أرتيست » . . .

وينبغي أن أنبه إلى أنني لم أرد في قصتي وصف السيد طبنجات ، والتقيد بتاريخ حياته ، بدليل أني قلت في وصف « أبو علي » بطل قصتي : « وكان قزماً هزيل الجسم ، بيدين طويلتين كيدي الغوريلا ، ووجه طويل أعجف ، بأنف مدلى على فمه . . . » وكل الذين يعرفون طبنجات يدركون بالبداهة أن هذه الصفات لا تنطبق عليه تمام الانطباق ! . . هذا من جهة الوصف ، فأما من جهة تاريخ الحياة ، وموافقته لما في القصة فقد أثار فيّ الدهشة أني تبينت بعض التشابه بين ما أوحته إليّ المخيلة وما ثبت لي أنه واقع من حوادث الأستاذ ، فلا أنسى أنه ذات يوم ، وبينما نحن منفردان في الحديقة إذ طلب إلي أن أنتحي به ناحية ليسر إلي شيئاً ، وهناك كشف لي عن حقيقة هذه المشابهة في

بعض المواقف !.. وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن ثمة فوارق متعددة بين القصة والرجل . والبرهان الأعظم على ذلك أن « أبو على الأرتيست » انتهت حياته فى شرخ الشباب ، فأراح واستراح . ولكن السيد طبجات - أطال الله بقاءه - جاوز حد الأربعين ، وما يزال حياً يسعى حتى الآن ..

والمعروف عن الأستاذ انه « نساخ » فى الفرقة القومية وفى بعض الروايات السينمائية تسند إليه أدوار هزلية سريعة ، والحق أن هذا ليس معبراً عن مواهبه الكثيرة التى يعرفها له الأخصاء . ونحب أن نظهر منها ثلاثاً ، وما خفى كان أعظم :

أولاً : أنه يجيد فى « التراجيديا » وقد شهدت له بعض المحافل الخاصة مواقف من روايتى « عطيل » و « أوديب الملك » ، وأعجبت به أيما اعجاب ..

ثانياً : أنه شاعر قدير ولكنه لا يحفل بنشر قصائده ، أو على الأصح لا يعتمد على الصحف فى نشرها ، وإنما يذيعها بنفسه بين من يأنس فيهم تقديره . وقد وجد أن هذه الوسيلة أنجع فى التمكن من آذان السامعين !

ثالثاً : أنه نقادة ماهر ، آخذ بناصية فنه ، مع تشعب هذا الفن وعمقه، وهو فى الواقع متعشق للنقد ، شديد الحساسية فى شأنه ، حتى أنه فى بعض الأحيان لا يملك نفسه إذا لم يعجبه كلام فيما ينسخه من روايات المؤلفين ، فتراه يصلح ما يبدو له أنه غير لاو على شىء . . وقد وقع منه أثناء نسخه لى بعض القطع أن قلمه لم يعفنى من التغيير والتبديل . وأننى مع اعترافى بأنه على حق فيما اقترف . لم يسعنى إلا الاحتفاظ بما فى الأصل الذى كتبته ، إبقاء على المجهود الفنى للأستاذ أن يضيع فى آثار الغير !

وخشية الإثقـــال على القارىء ، لم نذكر أنه مؤلف مسرحى ، وأنه كذلك قصاص . وحسبه أن له فى الميدان الأول رواية « الحشرات » التى يعرفها كل من يشترك فى أحاديث « قهوة الفن » . . فأما عمله فى الميدان الآخر . فهو أدهى من أن نجمله فى سطور ، وهناك فى داره أكوام مكدسة من الأوراق المحبرة تجمع شتات مؤلفاته التى كان يتوالى ظهورها لو قامت فى البـــلد هيئات منظمة تعنى

بإنتاج أهل الفن المظلومين .

وفى ظنى أن هذا الحديث الموجز يصور للقارىء على وجه السرعة شخصية السيد طبنجات . ولعلى أكون بذلك قد أديت دين الأستاذ علىّ ، إذ كانت أحاديثه الغالية وحياً لأثر من الآثار القصصية التى جرى بها القلم .

في ضيافة الأرواح

عزيزى ابراهيم ذو الفقار

ما الذى حفزنى لأن أكتب إليك اليوم ، وقد جالستك أمس بجوار جدثك جلسة ممتعة قضيناها معاً على أتم صفاء . لعل اعتزازى بهذه الجلسة ، ورغبتى فى تدوين أخبارها ، واحتفاظى بها كمذكرات عزيزة غالية ، هو الذى دعانى لأن أكتب إليك ، ولعل الناس يعجبون كيف أصف هذه الجلسة بالمتعة ، وأننا قضيناها على أتم صفاء ، ولعلهم يقولون : « أفى جلسة الأموات متعة ؟ وهل يكون فيها صفو وإشراق ؟ »

إنهم على حق فى عجبهم وتساؤلهم وهم يرون كيف أن الدموع ما زالت حتى الساعة تنثر حولك ، وأن النحيب لا ينقطع لحظة عن الطواف بمزارك ، إنهم يرون هؤلاء الأحباب من حولك ، وقد علت وجوههم سحائب الألم ، يقدمون إليك فى ثياب الحداد ، وإذا ناجوك فبلغة الحداد . فكيف يكون إذن متعة أو صفاء أو إشراق ؟ ! الحق أن

كل شىء يدعو إلى الأسى والحسرة ما دمنا نقيم حداً بين الميت والحى ، فنرى فى الميت شخصاً قد انفصل منا ومن عالمنا، واعتزلنا اعتزالا أبدياً فلم نعد نسمع صوته ولا تقع أعيننا حتى على خياله ، غير أن الأمر يتوقف على هذا الحد ، الذى يقيمه الأحياء فاصلا بينهم وبين أعزائهم الأموات .

إن البعض يراه وقد شيد من الصوان العالى الجسيم فمحال تخطيه ، ولكن البعض الآخر يراه وقد رق حتى أصبح كغشاء النسيم ومن ثم أضحى حداً وهمياً يسهل على الحى اجتيازه إذا أراد . ها قد وصلنا أيها العزيز إلى نقطة حيوية قد تعدها الفلسفة من اختصاصها ، وهذه النقطة هى : (أهناك حقاً حد فاصل بين الميت والحى ؟) سؤال يضطرنا أن نقف بعض الوقت متأملين ثم نجيب فى هوادة ما هو الموت ؟ وما هى الحياة ؟ . أليس الموت انحلال الجسم إلى عناصره الأولى ؟ أليست الحياة تجمع هذه العناصر فى حدود معينة لمدة معينة ؟ وما أقصرها من مدة فى عمر هذا الوجود ، إن الموت لا يعدو أن يكون ظاهرة من ظواهر

هذا العالم ، إنه تحول ، تغير يطرأ على الجسم فيبدل من شكله الظاهرى، أما عناصره الأصلية فباقية خالدة ،هذه العناصر نراها وقد التأمت فبدت فى أشكال أخرى تعمل فى تعمير هذا العالم الغريب، ومن ثم هذا الامتزاج بين الأحياء والأموات، هذا الامتزاج الذى يكون وحدة الكون ، وألفة الوجود .

هذا ما كنت أحسه فى أعماق قلبى عند ما كنت بجوار قبرك العزيز ، وهكذا رأيت ذلك الفاصل الذى كان قائماً بيننا والذى طالما أبعدنى عنك ، أو أشعرنى بهول فقدك ، قد تداعى وتلاشى ، فوجدتنى أقرب الناس إلى مناجاتك والامتزاج بروحك .

فى جو هذه الفكرة عشت معك يا صديق وقتا من اصفى الأوقات وأمتعها ، فتضاءل كل ما يحيط بى من مرئيات ، مرئيات الصحراء والقفر والأجداث ، مرئيات السائلين الفقراء ينتظرون نصيبهم من الصدقة ، مرئيات القراء وهم يرتلون القرآن بصوت حنون . تضاءل كل هذا فألفيتنى كأنى فى زيارة مألوفة لك فى منزلك ، رأيتك آتياً ترحب بى فى تلك اللهجة المرحة التى تعودنا أن نسمعها منك، وفى ذلك التألق والبشر الذى لم يكن يفارق وجهك ، رأيتك لا يستقر

المقام ، كما كنت أراك دائماً ، تروح وتجيء أمامى فى
كة دائبة ، تلاطف وتتندر ، وترسل الضحكة أثر الضحكة
ى بالحياة والآمال ، وتلقى الأسئلة غير منتظر لها جواباً ،
تسترسل فى ذلك الحديث اللطيف ، تنتقل من موضوع
موضوع كأنك شعلة متأججة لا يهدأ لها لهيب . لقد كنت
نفسك فى كل دقائق شخصيتك ، حتى فى أشاراتك الصغيرة ،
لثغة لسانك المحببة .

قضينا الوقت نسمر ونناجى ، فإذا ما سألتنى عن عالمنا ،
كأنما تسألنى عن أمر غابت عنك معرفته ، إذ كنت على
فر اغتربت فيه وقتاً ثم عدت إلينا . وإذا ما سألتك عن
يالك فكأنى أسائلك عن بلد غريب عنا ، ذهبت إليه تسيح
له وتتفرج ، فأستفسر منك عما فيه وعما يجب أن أتزود به
ى رحلتى القادمة إليه ! !

على هذه الحال قضينا وقتاً ممتعاً صافياً . وخرجت بعد
ن ودعتنى أحر وداع ، وكان الظلام قد بدأ يتفشى فى
لكون ، ويغشى الوجود الصمت والهدوء ، وركبت العربة
فسارت بى فى ذلك العالم السحرى ، ذلك العالم الذى يجمع
شمل الأحياء بالأموات . . . ثم صحوت فجأة على ضجة وهرج

وأنوار ! فإذا بى وسط المدينة فى ليلة العيد . الموسيقى تتعالى بأصواتها المختلفة والناس مشرقون يتضاحكون ، ويتصايحون فرادى وجماعات يحملون الجديد من المتاع والطيب من المأكول . كل هذا فى وهج من أنوار خاطفة . أنوار مختلفة الألوان ، بعضها يتراقص على جبهات الأبنية العالية فتحسبه معلقاً فى الفضاء ، وبعضها يفيض على الطرقات من كل صوب . فيحيلها إلى أنهر زاخرة .

وسارت بى العربة فى ذلك العباب فإذا أنا فى دنياى الأصيلة ، دنيا الحقائق التى تلمس باليد . والتفت خلفى فإذا بذلك الفاصل يتجمع ثانياً ، وفى لحظة رأيته يقوم [illegible] من الصوان الجسيم ...

فى هذه اللحظة وحدها تطايرت من رأسى خيالات الفلسفة عن « وحدة الكون وألفة الوجود » .

فى ذلك الوقت يا عزيزى ابراهيم شعرت من أعماق قلبى بأنى فقدتك إلى الأبد وأنك لا تسكن قصراً ولا تعيش فى النور ، بل أنت — بالرغم منا — وحيد فى ذلك المكان الضيق حيث الوحشة والظلام .

فى ذلك الوقت وحده غشيت عينى الدموع ! !

غرامي بالصحراء

لم تكد الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ، حتى لاحظنا اتجاها جديداً فيما يطالعنا به الأدب الفنى ، ولا سيما فى (السينما) ذلك هو الرجوع إلى الطبيعة الساذجة والمعيشة الفطرية ، والإشادة بما تحويه تلك الطبيعة من مباهج رائعة ، وما تنطوى عليه تلك المعيشة من فضائل سامية . وما زلنا نذكر رواية « الأشباح البيض » التى أصابت أعظم نجاح حين ظهرت فى مطلع الفيلم الناطق على الستارة البيضاء وما هى إلا موازنة بين الحياة المدنية بعنفها وزيفها وبين الحياة البدائية السليمة من الأوضار الخالية مما يكد الأعصاب ويزهق الأنفس ، وكذلك آنسنا هذه الروح فيما جرت به أقلام كتاب كثيرين عالجوا تصوير الحياة فى الجزر النائية والأصقاع المنعزلة فى إطار من التمجيد والإكبار ، حتى لقد كانت تلقب هذه الحياة بـ « الجنة الموعودة » و « الفردوس المفقود » . وكان طبيعياً أن تنشأ هذه الروح ، وأن يبرز هذا

الطابع ، فإن تلك الحرب العالمية أودت بالرجال ، ويتمت الأطفال، وأرملت بسببها النساء، وتحطمت أعصاب الناس ، وانقلبت الأنظمة الاجتماعية رأساً على عقب ، وشاع القلق والحيرة والتزعزع . فلا غرو أن يتعطش القراء والنظارة إلى ما يعيد الطمأنينة إلى النفوس ، وينقل الأرواح إلى آفاق يسودها الهدوء والسكينة ، فأخذ الكتاب يقربون للناس هذه الأماني والرغبات فى عالم الخيال، لكى يجدوا فيها متعة لأفئدتهم، وتخلصاً مما هى فيه من الحرج والضيق ، ويخيل إليهم أنهم يحيون تلك الحياة المأمولة التى فقدوها فى الواقع الملموس ، وأنهم ينعمون بما فيها من أمن ورفاهية .

سرعان ما لحت فى خاطرى هذه الفكرة التى أسلفتها ، حينما وجهت إلى نفسى ذلك السؤال : لماذا أنا مغرم بالصحراء ؟ فقد أدركت الشبه القوى بين حالتى النفسية وبين الحالة العالمية التى شملت الناس فى أعقاب الحرب الماضية : فقبل جملة أعوام ، إذ كنت فى سويسرا ، ظلت ملابسات حياتى هينة رخية . وبقى الجو الذى يحيط بى صافياً رائقاً ، فنعمت بحياة قريرة . وظهر أثر ذلك فيما كتبت وما ألفت وما رسمت من خطوط الأفكار . إذ كان طابعها الهدوء

واليسر . ولما رجعت إلى مصر ، وبدأت أستقبل أشتات المشاغل ، وأخوض غمار الحياة إلى الأعماق ، تلبدت فى سماء حياتى سحائب وغيوم ، وتناثرت فى طريقى شباك وأشواك .

وتكشف لى من صميم الحياة جانب كان خافياً عنى مبهماً علىّ : وهو الجانب الصاخب المفعم بأسباب العنف والإرهاق الحافل بألوان الخداع والتغرير . ولا أكتم أنى أحسست كثيراً من الخيبة وتخلف الظن فيما كنت أعقد عليه الأمل وأوطد العزم . فلا بدع إذن حين أتلمس فى رحاب الخيال مفزعاً مما أنا فيه . فأصور لنفسى حياة أطيب ، ومعيشة ألين ، بريئة من غش الحياة الراهنة ، منزهة عن ضجيجها الأجوف ، وما أقرب إلى الشرقى أن يتمثل الصحراء ملجأ أميناً يلقى بين أحضانه الدعة والطمأنينة وراحة البال فى ظل السذاجة والطهر . ومن ثم كانت الصحراء وما شابه الصحراء من معيشة ريفية أولية رمزاً لما أحسه فى قرارة نفسى من الحاجة الملحة إلى الملجأ الوادع اليسير . ولم يكن مقصوداً أن أتخذ الصحراء ، ولا أن أصطنع الرمز . وإنما كان ذلك على غير عمد منى . فإذا كنت الآن أعترف على نفسى بهذا فلأنى أحاول صادقاً أن أفسر على نهج تحليلى هذه الظاهرة النفسية : ظاهرة غرامى بالصحراء . . .

الجنة كما أتخيلها

طريف أن أسأل عن الجنة كما أتخيلها ، وأنه للزام أن يكون الجواب عن هذا السؤال طريفاً أيضاً . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ، والذهن قد يبس وأجدب فى هذه الأيام الشداد ، فتعذر عليه أن يأتى بالطريف الشائق ؟ . . .

ولقد ظللتُ صامتاً أفكر برهة ، والحيرة تكتنفنى ، ثم انتبهت أسائل نفسى : فيم حيرتى ؟ وكان حرياً أن أكون متهيئاً للجواب ، فالشوق إلى النعيم وتخيل السعادة للإنسان من يحيا فى « جحيم » هذا العهد

يُطلب إلىّ وصف الجنة كما أتخيل ، وإنها لفطنة ألا يطلب إلىّ وصفها كما أعلم . و « التخيل » مقصود به الرغبة ، فسبيلى أن أتحدث حديث الجنة كما أشتهى أن تكون ، لا كما هى على حقيقتها ، إذ من المحال أن أرسم صورة حقة للجنة ، فإن الذين رحلوا إليها لم يغادروها ليحدثونا حديث من رأى لا من سمع ! فأما الصفات التى استقيناها من

الكتب المقدسة فهى لمحات خاطفة تملأ القلب روعة ، وتذكى فى النفس نوازع الحنين . وبها من الرموز والإشارات ما يتباين فيه فقهاء الدين تفسيراً وتأويلا . فالجنة التى أتخيلها مى « جنتى » ... جنتى أنا ... والتى تتخيلها هى « جنتك » ... أنت ... ولكل امرىء جنته وفق تصوره الإنسانى المحدود برغباته ونزواته !

فلندخل الآن فى صميم الجواب . ويحسن أن نتوسع فى السؤال فنقول : كيف يكون العالم الآخر كما أتصوره ؟ إنه بفردوسه وجحيمه فيما أتخيل — أعنى : فيما أرغب — صورة تماثل الدنيا التى نعيش فيها الآن ، ولكن فى وضع أسمى وأكمل . أو — بتعبير آخر — يكون متمما لهذه الدنيا ...

والحق أن فى دنيانا ألواناً شتى من الشقوة والمتـاع ، ثمة هناء لمن أراده ، وثمة شقاء لمن طلبه . وقد خلق الإنسان ليحيا حياة كفاح ونضال ، يسعد تارة ويشقى أخرى ، يصيب من المتعة رشفة ويحتسى من البؤس كأساً . ذلك هو سر جمال الحياة ، وبدون ذلك تمل الحياة وتسئم . فالأشياء لا تتبين إلا بأضدادها ، والطعوم لا تتعرف إلا باختلافها ،

فالدنيا فيها جحيمها وفردوسها معا ؛ وهى — على هذا الوضع — تجعلنا نتعلق بها ؛ ونقبل عليها ...

ولا ننسى أن الذى يجعل للحياة قيمة كونها محدودة بالموت ؛ فهو — فى نظرى — نعمة أسبغها الله علينا ، لتزداد الحياة إمتاعا ونفاسة ...

فلى بعد هذا أن أتخيل العالم الآخر — كما قلت — صورة من هذه الدنيا ، ولكن فى وضع أكبر ، وميدان أرحب . وأملى أن يكون فيه كل ما فى الدنيا ، حتى الموت ، فهو ضرورى هنالك ، ولكن فى شكل آخر أساسه التجدد والانتقال من حال إلى حال . وربما كان نوعا من الفكرة التى نعرفها باسم « تناسخ الأرواح »

وعندى أن الله سبحانه وتعالى أوجدنا فى هذه الدنيا — ذات المحيط الضيق — لنمتحن أنفسنا ، ونتوضح أهواءنا ؛ حتى إذا نُقلنا إلى العالم الآخر — ذى المحيط الأوسع كنا مزودين بالتجارب ، مستفيدين منها ، فنحيا هنالك حياة أطيب وأسمى ...

مؤلفات محمود تيمور

(١) في العربية

الوثبة الأولى – مجموعة قصصية – دار النشر الحديث – القاهرة ١٩٣٧

أبو علي عامل أرتيست » » – المطبعة السلفية – القاهرة ١٩٣٤

الأطلال » » » » » ١٩٣٤

الشيخ عفا الله » » » » » ١٩٣٦

قلب غانية » » – دار النشر الحديث » ١٩٣٧

فرعون الصغير » » – مطبعة المعارف » ١٩٣٩

نداء المجهول رواية قصصية

الطبعة الأولى – دار المكشوف – بيروت ١٩٣٩

الطبعة الثانية – مطبعة المعارف – القاهرة ١٩٤٢

مكتوب على الجبين مجموعة قصصية – مطبعة المعارف – القاهرة ١٩٤١

نشوء القصة وتطورها محاضرة – المطبعة السلفية – القاهرة ١٩٣٦

ثلاث مسرحيات باللغة العامية – الناشر محمد حمدي – القاهرة ١٩٣٦

عروس النيل مسرحية غنائية بالعامية » » » ١٩٤١

المخبأ رقم ١٣ مسلاة في ثلاثة فصول » » » ١٩٤٢

حورية البحر مجموعة قصص للطلبة – دار المكشوف – بيروت ١٩٤١

قال الراوي مجموعة قصص للنشء والأسرة

المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ١٩٤٢

عوالى   مسرحية عربية بالفصحى

المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ١٩٤٢

سهاد أو اللحن التائه مسرحية عربية بالفصحى

مكتبة عيسى البابى الحلبى ـ القاهرة ١٩٤٢

المنقذة وحفلة شاى مسرحيتان ـ دار الكتب الأهلية ـ القاهرة ١٩٤٣

قنابل   مسلاة مصرية بالفصحى

لجنة النشر للجامعيين ـ القاهرة ١٩٤٣

أبو شوشة والموكب مسرحيتان بالفصحى ـ مطبعة التقدم ـ دمشق ١٩٤٣

بنت الشيطان   مجموعة قصصية ـ مطبعة المعارف ـ القاهرة ١٩٤٤

عطر ودخان   لجنة النشر للجامعين ـ القاهرة   ١٩٤٤

(ب) فى الفرنسية

غراميات سامى   مجموعة قصصية

جماعة الكتاب المعاصرين ـ باريس ١٩٣٨

حلم سمارا   مجموعة قصصية ـ منشورات هوروس ـ القاهرة ١٩٤٢

بنت الشيطان   مجموعة قصصية ـ منشورات مجلة القاهرة ـ

القاهرة ١٩٤٣

(حـ) فى الألمانية

مجموعة قصص (اختارها وترجمها المستشرق السويسرى

الدكتور ويدمار)

تحت الطبع :

عبلة : ثمرة الصحراء   قصة عربية

محمود تيمور

رائد القصة المصرية

دراسة تحليلية

بقلم

نزيه الحكيم

يطلب من

مكتبة مصر بشارع الفجالة رقم ٦٣

الثمن عشرة قروش مصرية

لجنة النشر للجامعيين (لجنة الإنتاج الفني)

أحمس	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة
رادوبيس	نجيب محفوظ عبد العزيز	يولية سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفاري	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قنابل	محمود تيمور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
اخناتون ونفرتيتي	علي أحمد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	عبد القادر المازني	يناير سنة ١٩٤٤
أقاصيص	لنخبة من الأساتذة	فبراير سنة ١٩٤٤
سلامة القس	علي أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنتر	عادل كامل	ابريل سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٤
ع الماشي	ابراهيم عبد القادر المازني	يونية سنة ١٩٤٤
حديقة أبي العلاء	كامل كيلاني	يولية سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ عبد العزيز	أغسطس سنة ١٩٤٤
خريف امرأة	إبراهيم المصري	سبتمبر سنة ١٩٤٤
قصر الهودج	علي أحمد باكثير	« سنة ١٩٤٤
عشاق العرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر سنة ١٩٤٤
مليم الأكبر	عادل كامل	نوفمبر سنة ١٩٤٤
في الوظيفة	عبد الحميد جوده السحار	ديسمبر سنة ١٩٤٤
محمد رسول الله	مصطفى فهمي	يناير سنة ١٩٤٥
عطر ودخان	محمود تيمور	فبراير سنة ١٩٤٥

تحت الطبع:

وا إسلاماه	علي أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٥

لا تقل: «واحبيبتاه!» بل قل:

وإســـلاماه!!

القصة الفائزة بجائزة وزارة المعارف

القصة الرائعـــة التى كشفت عن
حقبة غامضة فى التاريخ الإسلامى

للأستاذ

على أحمد باكثير



تظهـــر فى أول مارس سنة ١٩٤٥

كتاب ضخم

مطبعة مكتبة مصر

الثمن ١٥ قرشاً